الباب الثالث

حياة أبي تمام وحياة شعره

١ — بلـــده

وُلِدَ أبو تمـام : حبيب بن أوس الطائى " بجاسم " ؛ يقول ياقوت : "وهو اسم قرية، بينها وبين دمشق ثمـانية فراسخ، على يمين الطريق الأعظم إلى "طَبَرية". ويقول صاحب الأغانى : إنها بناحية مَنْبِج . ويضع ياقوت مدينة مَنْبِج هذه إلى الشمال الأقصى من بلاد الشام ، بحيث يكون بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . وهذا لا يتفق مع قرب جاسم من دمشق عند ياقوت . فدمشق تقع فى قلب البلاد الشامية . وعندى أن تحديد ياقوت أوثق وأصح . وقد تكون ملاحظة الصلة بين أبى تمـام ومَنْبِج ، هى التى حملت صاحب الأغانى على جعل جاسم مسقط رأس أبى تمـام، قريبا منها . فالصولى يروى فى أخبار أبى تمـام "أن جماعة كانوا يتهمونه (أى أبا تمـام) بأنه كان يعيش مع أم البحترى سفاحا" والبحترى مولود فى منبج هذه، وأملاكه بها، على حد تعبير ياقوت .

ويذكر أبو تمام فى شعر غزل له مَنْبِج فيقول :

أأطـلالَ بنتِ العـامرىّ بمنبـــج ... غِنـاؤك محظورٌ على الدنفِ الشَّجِى

أجيبى سـؤالى ، وأعرِفى إن عرَفتِهِ، ... مُقـامِىَ عن صَحبى ، وحـقَّ تعرّجِى

وناحية دمشق كما يصفها ياقوت : "جنة الأرض بلا خلاف : حسن عمارة ، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، ووجود مآرب" .

واشتهرت جاسم بجآذرها، فيقول شاعر طائى، هو عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنهـا بين النساء أعارَها ... عَيْنَيْهِ أحورُ مِن جآذر جاسِمِ

فى هذه البقعة ولد أبو تمـام .

وقد أجمع المؤرخون ، والنسابون، وأصحاب كتب الأدب ، على أنه من نفس طيئ صَلِبية . لم يشذ على هذا الاجماع أحد . إلا أن الصولى فى كتابه أخبار أبى تمام، ذكر عبارة أشار فيها إلى نصرانية أبيه، ولم يذكر هذه العبارة على أنها رأيه هو — فقد تحدث عن رأيه قبل ذلك حديثا قاطعا ولكنه ذكرها فى معرض الحديث عن محاولات أعداء أبى تمام النيل منه، ووسائلهم فى ذلك . وقد ناقشنا هذه العبارة فى باب سبق ، فأبنا أن نصرانية أبى تمام لا تتعارض مطلقا مع طائيته ؛ فان النصرانية كانت فيهم قبل الإسلام ، وظلت فيهم بعده إلى زمن متأخر عن زمن أبى تمام . وقد أتاح ذكر الصولى فى عبارته السابقة كلمة "تدوس" فى نسب أبى تمام بدلا من "أوس" لصاحب مادة أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية، مجالا لإرضاء عصبية خاصة فى نفسه . فجعل أبا أبى تمام نصرانيا ، ثم استظهر إمكان رد الكلمة إلى أصل يونانى هو "Theodose" . وتابعه فى ذلك بعض الباحثين[1] .

٢ — مولده

أقدم ما بين أيدينا من نصوص يؤرخ مولد أبى تمام ووفاته ، ما كتبه الصولى فى "أخبار أبى تمام" ، فيروى عن عون بن محمد الكِندى أنه قال : "قرأت على أبى تمام شيئا من شعره ، فى سنة سبع وعشرين ومائتين ، وسمعته يقول : مولدى سنة تسعين ومائة[2] " .

ثم ينقل رواية أخرى، عن تمام بن أبى تمام أنه قال : "مولد أبى سنة ثمان وثمانين ومائة" .

---

(١) قرأت أخيرا فى صفحات ألحقت بشرح التبريزى على ديوان أبى تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش) و يظهر أن ناسخ الخبر نقله عن صفحات قد تآكلت من ناحية ابتداءات السطور، ولكنه ضم متفرقها فى غير اهتمام، لما بينها من ثغرات، فبدت خرومها إلا أنه ليس من العسر فهم ما هنالك . قرأت فيها ولم يبين الناسخ مرجعه أن أبا تمام كان من بنى عدىّ بن عمرو بن الغوث بن طيئ ثم قال : "وقيل كان أبوه نصرانيا من أهل جاسم فصيره أبو تمام أوسا" . "ويقال إن اسم أبيه كاوس . وفيه يقول أحمد بن محمد بن الخثعمى :

ولقد طلبت أبا فأعجز وجده حتى انبرى لك كاوس الخمار الأبيات"

فلم يتهم أبو تمام فقط بأن أباه كان نصرانيا يدعى تدوس، ولكنه اتهم أيضا بأن أباه كان يدعى كاوس بحذف الكاف . وكاوس اسم فارسى . وأبو تمام هو الذى يقول فى صلب الإخشيد .

يا قابضا يد آل كاوس عادلا أتبع يمينا منهم بيسار

ولو أتيح هذا النص لأصحاب الظن بأن أبا تمام كان من أصل يونانى لترددوا فى الجزم بيونانيته ، لما عسى أن يوجد لهذه الدعوى على أبى تمام من فارسية تنافسها . ومثل هذه التهم ، التى لا تقوم إحداها إلا بانتفاء الأخرى ، إذا تعددت كان تعددها سبيلا إلى بهرجتها وعدم قبولها ، فى بابها ، وكانت هى نفسها دليلا على ما كان يحاول أصحابها من إثارة الظنون حول نسب أبى تمام ، ودخلت بذلك فى باب المهاترات التى لا تقوم بحال سندا علميا فى تصحيح دعوى ، يقوم على تكذيبها كل النقول التاريخية المصححة عند المؤرخين والنسابين والنقاد .

(٢) ورقة ١٣٢

أما ابن خلكان فيضيف إلى هذين التاريخين لمولده ، أنه ولد سنة اثنتين وسبعين ومائة ، واثنتين وتسعين ومائة . فيقع ذلك الاضطراب فى مولد أبى تمام فى عشرين سنة .

ولا يكاد يداخلنى الشك فى أن ابن خلكان ، يوم كتب هذه الروايات ، كان قد قرأ ما كتب عن حياة أبى تمام ، وما قالوا عن ذكائه ، وموته فى سن باكرة ؛ فلو لم يكن عنده احتمال تقوم به الرواية لما ذكرها ، إن لم ينفها . أما اثنتان وتسعون فأنا أميل الى الإغضاء عنها ، لما يخيل إلىّ من أنها عند من نقل عنهم ابن خلكان ، إنما كانت أثرا من آثار التصحيف أو التشابه فى الخط العربى بين سبعين وتسعين ، ولأن ماينتهى إلى أبى تمام وابنه خير مما لم ينته إلى أحدهما ، فضلا عن أن الصولى ، — ومعظم النقل عند من كتب عن أبى تمام كان عنه — لم يذكرها .

فيبقى بعد ذلك روايات ثلاث ، وهى سنة ١٧٢ ، وسنة ١٨٨ ، وسنة ١٩٠ ، والأخيرة منها يضعفها الاطلاع على حياة أبى تمام وغزارتها ، وأنها تجعل ابتداء انتقاله من دمشق إلى مصر فى سن باكرة ؛ كما أن هناك قرائن أخرى سأذكرها بعد ، تجعل الباحث يميل إلى جعل مولد أبى تمام متقدما ما أمكن ذلك .

* * *

هناك قرائن قد يُستأنس بها فى أن أبا تمام قد ولد سنة ١٧٢ . ولكن هذه القرائن ليست بالقاطعة . بل يقابل كلا منها احتمال لا يرتاح باحث معه إلى الاستناد عليها .

وأول ما يجب أن نذكره قبل الكلام على هذه القرائن ، هو أن أبا تمام نزل مصر فى حداثته ، وتلقى العلم بمسجدها الجامع ، وظل بها فترة لا تقل عن خمس سنين ، سجلها هو فى قصيدة من قصائده ، لا نعرف أقالها وهو فى مصر ، أم قالها بعد خروجه منها ، ومطلعها :

أَصِبْ بِحُمَيّا كأسها مَقتلَ العذْل تكُنْ عوضا إن عنّفوك من النَّبْل[1]

ومنها :

أخمسةُ أحوالٍ مضتْ لِمغيبِهِ وشهران ، بل يومان ثُكْلٌ مِنَ الثُّكل

و بيت آخر من قصيدة أخرى ، قالها فى العراق ، فى مدح الحسن بن سهل ، يجب ألّا ننساه ، وذلك هو :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأتبعُها إلى المشيب ولم تَظْلِمْ ولم تَحُبِ[2]

(١) الديوان ط مصر ص ١٤٠ (٢) ص ٩ المصدر نفسه

فهو — كما تبين من كلامه — قال هذه القصيدة فى العراق للحسن بن سهل وسنه ست وعشرون سنة، فيكون قالها فى سنة ١٩٨ أو سنة ٢١٤ للحسن بن سهل فى العراق .

فأما أن أبا تمام كان فى العراق حول سنة ٢١٤ فذلك لاشك فيه، فقد قتل فى تلك السنة محمد ابن حُميد الطائى، فى أذربيجان فى حرب بابَك الخُرَّمى ، فرثاه أبو تمام بقصائد وصل فيها إلى غاية فنه ؛ ويمكن الإنسان أن يتتبع حياة أبى تمام، بعد هذه السنة، فى المشرق حتى موته .

أما أنه كان فى العراق سنة ١٩٨ يمدح الحسن بن سهل ، فذلك ما يستحق منا أن نطيل الوقفة عنده .

(١) وُجِّه الحسن بن سهل فى هذه السنة إلى العراق، والياً عليه وعلى غيره، من قِبَل المأمون. فليس ما يمنع أن يتوجه إليه أبو تمام يمدحه فى تلك السنة . فإذا فرضنا أن أبا تمام كان حقا بالعراق سنة ١٩٨ كان علينا أن نتلمس هل كان قبل ذلك فى مصر أم لم يكن ؟ ونتيجة هذا البحث لا تبدو عقيمة تمام العقم ، فإنا نجد فى سنة ١٩٦ فى مصر أحد ممدوحى أبى تمام واليا عليها ، وهو المطّلب بن عبد الله الخُزاعى، وليها من قِبَل المأمون، ومدائح أبى تمام فيه ليست مذكورة فى نسخة الديوان المطبوعة بين أيدينا ، ولكن فيها هجاء لأبى تمام فيه ، لا يزيد على بيتين ، يشير فيهما إلى مدائح له ، وهما :

أَوَّلُ عدلٍ منك فيما أرى ... أنك لا تقبلُ قول الكذِبْ
مدحتكم كذبا فجازيتنى ... بخلا، لقد أنصفت يا مطّلِبْ

ولكنا لا نعرف أكان مدحه المطلب فى مصر، أم كان فى غيرها ؟ فى ذلك الزمن أو بعده ؟ فإنا نجده فى مصر واليا عليها مرة أخرى، يظل فيها سبعة أشهر، على ما يقول اليعقوبى فى تاريخه ، وذلك فى سنة ١٩٨ وعلى كل حال فالمرتان داخلتان فى نطاق فترة السنين الخمس، السابقة لسنة ١٩٨، وهى السنة التى نزل فيها الحسن العراق .

(ب) أضف إلى ما تقدّم : أن حدثا حدث فى تاريخ الحسن بن سهل، يجعلنا نرجح أن مدائح أبى تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣، ففى هذه السنة، يروى لنا الطبرى وابن الأثير : أن الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة ، حتى أنه وُضِع فى الحديد ، وحُبس، واستخلف المأمون على جنده دينار بن عبد الله — أحدُ ممدوحى أبى تمام فى الديوان . وإن كان الصولى يجعل القصيدة

المقولة فيه فيمن يدعى دينار بن يزيد — واتخذ على وزارته بدلا منه، أحمد بن أبي خالد. ويقول ابن خلكان إن مرة السوداء ثارت عليه، حتى منعته التصرف .

(ج) وفى سنة ١٩٨ أيضا ، يقتل الأمين ، وتزلزل أرجاء العالم الإسلامى بفتن كانت تلتهمه كالنار، فيخرج بكل قطر من استطاع أن يخرج به ... ومن بين الخارجين بأذربيجان، على بن مُرّ، ممدوح أبي تمام وصديقه ؛ ولكن لم تلبث أذربيجان أن أعيدت إلى حظيرة الخلافة . ولا شك فى أن علىّ بن مر هذا، كان مغضوبا عليه إذ ذاك من الخليفة . ويظهر أنه رضى عنه بعد ذلك فى زمن لا نعرفه . وفى رضا الخليفة عنه يقول أبو تمام[1] :

كم وقعةٍ لك ما ينفكُّ يذكرُها ... خليفةُ الله فى ستر وفى عَلَنِ

ويظهر أن الخليفة كان يستخدمه بعد رضاه فى إخضاع جماعة بغت بالشام، فيقول أبو تمام :

لَم يَبْقَ من شجرِ البغىِ التى غُرِستْ ... بجانب الشامِ من جِذمٍ ولا فَنَنِ

ثم يقول له ما يبين عن اتصاله به أيام محنته، وما يلقى فى الروع شيئا من أنهما متقاربان سنا :

لِى حُرمةٌ بِك فاحفظها وجازِيها ... يا حافظ العهدِ والعوّادَ بِالمِنَنِ
أولى البريةِ حقا أنْ تُراعيه ... عند السرور الذى آساك فى الحزنِ
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... مَن كان يألفهم فى المنزلِ الخشِنِ

ومما يؤكد الحس بتقاربهما فى السنّ، كتاب كتبه أبو تمام إليه فى غيبته ، قال منه :

ما زلْتُ بعدَكَ يا أخى فى حَسرة ... وتَلدُّدٍ حتى أراكَ سَليما
اِقْرَ السلامَ عليك مِنّى كلما ... جرتِ الرياحُ فأنشقتْكَ نَسيما[2]

وقد كتب إليه ذلك الكتاب لما غاب عنه وشاقه .

هذا التقارب فى السنّ ، المدرك فى كتاب أبى تمام ، بينه وبين ثائر بأذربيجان على الخلافة ، يجعلنا لا نظن أن سنّ هذا الثائر يوم ثار، كانت عشر سنين أو تزيد عليها قليلا .

(د) يذكر ابن الأثير، فى حوادث سنة مائتين ، فتنة بالموصل، وقعت بين بنى أسامة وبنى تغلب[3]، وقد يزيد هذا قوة، ماجاء وسأذكره فى ديوان أبى تمام، يقول ابن الأثير : "واقتتلوا قتالا شديدا، فقتل من بنى أسامة جماعة، وأسر منهم جماعة، ومن بنى تغلب، وكانوا معهم ... ... وصلح

(١) الديوان ط مصر ١٦٨ (٢) القصيدة ص ٢٥٣ من الديوان .
(٣) فى ابن الأثير وثعلبة؛ وهو تصحيف صحته ما أثبتناه .

الأمر، وسكنت الفتنة" . ولا يذكر ابن الأثير بعد هذا التاريخ، حتى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، شيئا عن فتنة وقعت فى الموصل، واشتركت فيها أسامة وتغلب ... ...

فإذا صح أن هذه الفتنة هى التى يتحدث عنها أبو تمام فى قصيدته، التى يمدح بها مالك بن طوق، قوى مامضى به، ورجح وجوده بهذه الناحية نحو سنة ٢٠٠ . أما القصيدة فمطلعها :

لو أَنَّ دهرا رَدَّ رَجْعَ جوابى ... أَو كَفَّ مِن شأْوَيْهِ طولَ عتابى[1]

وفيها يشير الى أنه كان شابا، فيقول :

أَو مَا رأَت بُرَدَىَّ مِن نسج الصِّبا ... ورأَتْ خِضابَ اللهِ وهو خِضَابِى
ورأَيتَ قومك والإساءةُ منهمُ ... جَرْحَى بُظفر للزمانِ ونابِ
هم صيَّروا تلك البروقَ صواعِقا ... فيهم وذاك العفو سَوْطَ عذابِ
فأَقِلْ أَسامةَ جُرمها ، واصفحْ لهَا ... عنه ، وهَبْ ما كان للوهَّابِ

وقد يعترض على هذا، بأنه ليس لنا أن نقطع بأن ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التى حدثت فى تلك الأيام، وليس مايمنع أن تتكرر الفتنة بين جماعتين بعينهما فى أزمنة تتباعد ، فيأتى ابن الأثير و يذكر واحدة لأهميتها، و يترك الباقى، ثم يأتى أبو تمام فيذكر الأخرى لاتصالها بممدوحه ، فيلتبس التاريخ بالشعر، بما يثير فى الظن أنهما عن حادثة واحدة، وليس ذلك صحيحا .

فأقول : هذا حق، ولكن ليس فيه مايقطع بأن هذه القصيدة قيلت فى غير هذه الفتنة، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به، وقد يزيد فى قوة الاعتراضين، أن أبا تمام يذكر فى قصيدة أخرى فى مدح مالك أيضا، تشبيها يثبت أنه قالها فى زمن متأخر . يقول فيها عن بيوت أحبائه :

كانت لنا صنما نَحنُو عليه ولَمْ ... نسجد كما سجد الأفشينُ للصنَمِ

وثبات جرم الأفشين إنما كان سنة ٢٢٥ ، وموته كان سنة ٢٢٦ . ولكن هذا لا يمنع أيضا أن يكون أبو تمام اتصل به مرتين، مرة نحو سنة ٢٠٠، ومرة أخرى نحو سنة ٢٢٦ .

(هـ) ما كاد الأمين يقتل فى بغداد سنة ١٩٨ هجرية، و ينتصر الفرس ومعهم المأمون، حتى اهتز العالم الإسلامى هزة مروعة ، فإذا بالثورات تتناوله من أقصاه إلى أقصاه، لأن قتل الخليفة وانهيار هذا الصرح الضخم ، من المعانى الدينية والقدسية ، التى نسجها العباسيون حول الخلافة، فى الدعوة لأنفسهم ، كان شديد الوقع فى النفس . ولم يلبث أن زاد الطين بلّة تسلُّط الفرس على

(١) القصيدة بالديوان ص ١١

الخليفة المأمون ، فبدأ العرب ، حتى من كان منهم مع المأمون ، يشعرون بانسياقهم التدريجى إلى دولة يخلص فيها السلطان للفرس . و إن اليعقو بى ليصوّر لنا تلك المرارة التى كانت فى نفوس العرب ، وما كانوا يحسونه من خذلان فيما يعتقدون أنه حق لهم ، فى قصة شخوص هَرْثَمة بن أعْيَن ، القائد العربى ، على المأمون ، وهو القائد الذى ذلل له ملكه ، وكان الفضل بن سهل يحس خطورته ، فأوقع بينه و بين المأمون . قال اليعقو بى :

" وشخص هرثمة إلى المأمون ، فدخل عليه فى محفة ، وكلمه بكلام غليظ ، ودخل معه يحيى بن عامر بن إسماعيل الحارثى ، فقال : السلام عليك يا أمير الكافرين . فأخذته السيوف فى مجلس المأمون ، حتى قتل . فقال هرثمة : قدّمتَ هذه المجوس على أوليائك وأنصارك . فأمر المأمون بسحب رجل هرثمة وحبسه ، فأقام فى محبسه ثلاثة أيام ومات[1] " .

و إن الإنسان ليحس مبلغ ما بنفس هذين الرجلين العظيمين من عظماء العرب ، حتى دفع بهم إلى هذه الجرأة على الخليفة ، بحضرة من يوجهون إليهم هذا السباب ، وساقهم إلى استهانة بالموت . وما كان المأمون يومئذ إلا صنيعة من سمّاهم هذان بالكافرين والمجوس ، وما كان يشعر بقوّته وسلطانه يومئذ إلا بهم ، بل لقد كان كما كان يراه أهل عصره سجينهم ؛ فلم يكن يعمل عملا إلا ما يرون .

فلما مات الأمين ثارت الأرض واضطربت ، فما من يوم إلا وخارجى يطفو ، ومذهب ينبو ، ومذهب يخفت ، ولكن أعلاها صوتا كانت دعوة العلويين . فقد استولوا — على ما فى اليعقو بى — فى غير توحيد لحركتهم — على البصرة ، والكوفة ، وواسط ، واليمن .

وتغلب غيرهم من العرب على الحجاز ، ونصيبين ، والموصل ، و إرمينية ، وأذربيجان ، والجبل . ولهذا ما له من مغزى . كما أن فى ذلك الالتفات والجنوح إلى أولئك الذين قام على أيدى أجدادهم من قبل سلطان العرب و بأسهم ، استجابةً واضحة لتلك الدواعى النفسية والتاريخية ، التى كانت تحكم الخصومة بين الفرس والعرب وتوجهها .

وكان الفرس قوما يميلون ، بعد التدين ، إلى ملكية ترتكز على سند دينى ، ونظام مطّرد ، يضع نمطها فيما يشبه الوراثة ويحددها . فلم يجدوا ما يتجهون إليه بعد الإسلام إلّا خلافة علوية ، تمت إلى صاحب الدعوة بأقرب الأسباب ، فاتجه نظرهم إلى علىّ أول الأمر . فلما انتهى الأمر بخسارته المعركة ، اتجهوا إلى العباسيين ؛ حتى إذا استقر لهؤلاء السلطان أخذوا يحنون إلى ميلهم العلوى الأول .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٥٤٦

و بذلك اجتمع للعدوين من المسلمين — الفرس والعرب — وجهة واحدة، وغاية تكاد تتفق، و إن آختلفت الدوافع، واصطدم ما يحفز هذا بما يحفز ذاك .

فلم يكن أسرع من المأمون إلى الاستجابة لهذا سياسةً ودهاءً . وكان قد مضى عليه تحت جناح الفرس سنين ، أحس فيها باختناق سلطانه ، وتضاؤل صَوْلته ، فأراد أن يستجيب للفرس إرضاءً ومداراة ؛ حتى تتهيأ فرصة الخلاص منهم ، وتسكينا لثورة الثائرين من الأقاليم العربية — فاختار فى سنة ٢٠١ وليا لعهده علىّ بن موسى الرضا ، وأمر جنده بطرح السواد، ولبس الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق .

ولكن الأمر لم يكن عند العرب فى القشور، و إنما كان فى الأصول، فإذا ضرام الثورة يعم، و إذا الفتنة تنال بغداد نفسها ، و إذا هو يخلع عن ملكه هناك، و يبايع بالخلافة عمه إبرهيم المهدى، لأن القوم لا يطلبون الخلاص فيها من العباسيين، و إنما هم يطلبون خلاص العباسيين من سلطان المجوس . وتجرى الدماء جريا تَجِفُ من هوله القلوب بين الضلوع، وتثور الناس بما يشبه الحشر، فلم تكن تلك الأمة الهائلة التى آجتاحت العالم منذ قرن و بعض قرن، بالتى تتحطم هذا الآنحطام السريع ، تحت أولى الضربات التى توجه إليها . كل هذا والمأمون لا يعلم من أمر الناس شيئا، فهو كما يعرفون عنه حبيس فى قفص من ذهب، يأتيه الفُرس بالحب الذى يشاءون. حتى إذا أبلغه ولى عهده ما هنالك لم يصدق، فهو يطلب شهودا، و إذا هم لايشهدون حتى ينيلهم أمانا من الفضل ابن سهل وزيره الفارسى، فإذا أمنهم قالوا .

و يدرك الخليفة ما هنالك، فإذا هو يدبّر للخروج إلى العراق و إلى بغداد عاصمة أجداده، وقلب ملكه ، و إن قلبه ليخفق بين الإشفاق والطرب ، و إنه ليتمهل فى طريقه ، فإذا سمع أن الفضل قد أخذ من شهدوا أمامه ، فضربهم ، وحبس بعضهم قال : دعونى فإنى أدارى .

و بينما هو فى الطريق يموت الفضل بن سهل فى حمّامه ، قتلا بيد جماعة من عبيده، و يؤتى بهم ليحاكموا أمام المأمون؛ فيقولون له : إنك أمرتَنا بقتله . ولكنه يأمر بهم فيُقتَلون ، و يرسل برءوسهم إلى الحسن بن سهل أخى الفضل، ومعها رسالة باكية .

ويخلص الخليفة من أهول مستبد عرفته الخلافة الإسلامية حتى عهده . ثم هو لا يكاد يصل إلى طوس حتى يموت على بن موسى الرضا، فى قول بعض، مسموما . و إنّ دهاء المأمون ليلمح حين يقرأ الانسان قول اليعقوبى : "وأظهر المأمون عليه جزعا عظيما . فحدّثنى أبو الحسن بن أبى عباد قال :

رأيت المأمون يمشى فى جنازة الرضا حاسرا، فى مُبَطَّنة بيضاء، وهو بين قائمتى النعش يقول : إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن ؟ ! وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فيأكله . ثم انصرف فى اليوم الرابع" . وكان موت الرضا فى سنة ٢٠٣ هـ .

فى هذه الفترة — بعد ما بينت من أشياء تلمح فيها علاقة أبى تمام بحوادث المشرق — يستطيع الانسان أن يضع من قصائده قصيدة قالها فى آل على :

أَطَيبةَ حيثُ آستَنَّتِ الكُثُبَ العُفْرُ رويدكِ لا يغتالُكِ اللومُ والزجرُ

فى هذه الفترة، حيث الميل عند العرب واضح نحو العلويين، وحيث هو يفوقه عند الفرس ، كما أن ظاهر تحرك الخلافة وميلها إلى جانبهم أيضا، فى هذه الفترة أستطيع أن أضع قصيدة أبى تمام تلك حتى يعبر بذلك عن حس نفسى يجيش فى صدر أمته ، وحتى يضرب ضربة شاب ناشىء، يريد أن ينال الشهرة والجاه باسترضاء الخليفة والفرس جميعا . فضلا عن أن وضع القصيدة فى هذه الفترة، لا يدع محلا للعجب من تعصبه للعباسيين الواضح فى شعره بعد هذا الزمن، كقوله من قصيدة يمدح فيها أحمد بن المعتصم .

فالأرضُ معروفُ السماءِ قِرًى لها وبنو الرجاءِ لهم بنو العباسِ
القومُ ظِلُّ اللهِ أسكَنَ دينه فيهم ، وهم جَبَل الملوكِ الراسى
فى كل جوهرةٍ فِرِنْدٌ مُشرِق وهم الفِرِند لهؤلاءِ الناسِ

فهو فى الأولى إنما كان يمدح العلويين، لظنه أن ذلك يرضى العباسيين .

كما أن هناك شيئا فى هذه القصيدة، فالناظر فيها من الناحية الفنية مضطر أن يضعها فى أول شعره من حيث الزمن، وذلك لما فيها من ألفاظ غريبة كثيرة، وصور تميل إلى الفن الجاهلى . ففيها التشبيه الطويل، وهو ما يندر فى شعر أبى تمام . وفيها بيت لا إخاله صادقا فيه بالتحديد ، ولكنه دليل واضح على أنه قالها وهو شاب، فهو يقول :

و إنَّ الذى أحْذانِىَ الشَّيبَ لَلَّذى رأيتُ ولَمْ تكمل لى السبعُ والعشرُ

فهو يقول إنه قالها وسنه أقل من سبع عشرة سنة . وهو مالا يصدّق معه فرض أنه قالها فى العراق، وفى هذه الظروف التاريخية التى ذكرتها . فإذا جعلنا مولده سنة ١٨٨، على الرواية الثانية، كان كأنه قال هذه القصيدة سنة ٢٠٥، أى بعد موت موسى الرضا — إن صدّقناه فى تحديده سنه فيها —

وبعد أن كان المأمون ترك لباس الخضرة ، ونزع عن الدولة شعارها العلوى سنة ٢٠٥ ، وهو فرض مرجوح وإنْ لم يكن مستحيلا .

هذه شبه وجدتها ، نتعاون جميعا على تقرير احتمال وجود أبي تمام بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٣ ، يضطرب فى العراق وأرجاء المشرق .

وهناك خبر آخر أرجأته ، ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ، وذكره ابن عساكر فى تاريخ دمشق . ومقتضاه : أن أبا تمام اجتمع ببغداد فى جامعها ، بدعبل وأبي الشيص وابن أبي فَنَن ؛ وكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ، فيتناشدون الأشعار ، والناس يستمعون لهم . قال على بن الجهم ، وهو راوى القصة ، وكان معهم : "أبصرت شابا فى أخريات الناس ، جالسا فى زىّ الأعراب ، فلما قطعنا الإنشاد قال لنا : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم ، فاسمعوا إنشادى" . ثم أخذ فى إنشاد قصائد له ، إحداها فى المعتصم ، ومنها البيت :

بالقائمِ الثامنِ المستخلَفِ اعتدلَتْ قواعدُ الملك ممتَدًّا لها الطُّوَلُ

وغير هذه واحدة فى المأمون ، وواحدة فى محمد بن حسان الضبي . ولكن هذا لا يصح تاريخا : ذلك أن أبا الشيص مات ، على ما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، سنة ١٩٦ ، وأبو تمام يتحدث عن المعتصم الخليفة الثامن من بنى العباس ، والمعتصم لم يكن خليفة إلا بعد موت المأمون ، وقد كان ذلك سنة ٢١٨ . كما أن الصولى يقول قولا يدل على أن أبا تمام لم يتصل بالمعتصم إلا فى فتح عمورية . فمن المستحيل أن تناقش قبل سنة ١٩٦ قصيدة قيلت سنة ٢١٨ ، كما أن ما أعرفه عن صلته المحققة بالمأمون لم تكن إلا حول سنة ٢١٧ . فإما أن القصة موضوعة ، وإما أنها زيد عليها ، وإما أنها أخطىء فى رواية أسماء أصحابها . ولقد رأيت ابن نباتة فى سرح العيون ، يجعل أبا الشيص ابن أبي الشيص ، ولكنه لا يلبث أن يخطىء فى صلب القصة ، فيضع أبا الشيص ثانية .

* * *

وخبر آخر ، هو أن أول شارح للحماسة هو محمد بن آدم الهَرَوِىّ ، ذكر ذلك صاحب "كشف الظنون" ، وذكر أنه مات سنة ٢١٢ ؛ وذكر فريتغ فى هامش مقدمة لطبعة "الحماسة" الأوربية ، أنه مات سنة ٢٠٢ وكتبها بالحروف . ولا أعرف من أين أتى بهذا التاريخ ، فإنى لم أجد لهذا الهَروى شارح الحماسة ذكرا إلا فى كشف الظنون ، وتاريخ موته فيه كما ذكرت . وهذا الشرح الباكر لكتاب أبي تمام فى حياته ، غريب يرجح معه — لو صح — أنه ولد سنة ١٧٢ وليس بعدها . ولكن

المسعودى يصرح فى كتابه مروج الذهب، أنه : " قد كان أبو تمام ألف كتابا ، وسماه الحماسة ، وفى الناس من يسميه كتاب " الخَيِّرة "، انتخب فيه شعر الناس، ظهر بعد وفاته[1] " .

ونص المسعودى صريح فى أن الحماسة ظهر بعد موت أبى تمام ، وليس فى حياته . كما أن فى التواريخ التى يذكرها صاحب كشف الظنون اضطرابا لا يدع فى النفس اطمئنانا إليها ، فضلا عن أن تاريخ موت الهروى هذا ، يختلف فى الطبعة الأوربية عنه فى طبعة بلاق المصرية ، فهو فى الأخيرة سنة أربع عشرة ومائتين ، يكتبها بالأرقام ، ثم تتلو الأرقام الحروف .

وهناك قصة لم يذكرها الصولى فى أخبار أبى تمام ، وذكرت فى مقدمة ديوانه الذى استحضرته الجامعة المصرية حديثا من مكتبة الإسكوريال . ومضمونها أن أبا تمام مرّ بالبصرة مرة ، فرأى طفلا تبلغ سنه الخمس ، ثم مر بها ثانية ، فرآه وقد بلغت سنه الثلاثين ، فكأن بين مروريه بالبصرة خمسا وعشرين سنة ؛ فلو فرضنا أنه مر بها آخر أيامه ، أى فى سنة ٢٣٢ أو سنة ٢٣١ لكان أول مرور له بها سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٦ ؛ فلو أنه كان مولودا سنة ١٨٨ ، لكانت سنه يومئذ تسع عشرة سنة أو ثمانى عشرة سنة . ولو ذهبنا فى الظن إلى أنه ترك مصر هذه السنة وهو قد بقى فى مصر على أقل تقدير خمس سنين ، لكانت سنه يوم نزل مصر أربع عشرة سنة ، أو ثلاث عشرة سنة . وهو ما ليس مستحيلا ، ولكنه بعيد شيئا . كما أن تاريخه فى مصر ، وعمله ، واتصاله بمن اتصل بهم فيها ومدحهم ، لا يتناسب مع هذه السنّ الباكرة . هذا إن صحت القصة ؛ فإن الفتى الذى قابله أبو تمام فى البصرة ـ على ما يظهر من مقارنة القصة بغيرها فى كتب أخرى ـ هو عبد الصمد ابن المعذّل ، وهو خصم من خصوم أبى تمام ، تصوره القصة فى منتهى التوقد والذكاء ، وتصور أبا تمام بصورة المنهزم أمامه طفلا وشابا ، تاركا له البصرة ، إذ هذه حال أطفالها ، فكيف برجالها . فليس يبعد أن يكون خصومه قد حاكوها نكاية به ؛ وأغرب مافيها أنها مروية على لسان أبى تمام نفسه .

* * *

يقوّى هذا كلّه ما يلاحظ من أن ممدوح أبى تمام فى مصر ، وهو عياش بن لَهيعة الحَضْرمى ، ليس له ذكر فى تاريخ مصر إلا فى سنة ٢٠١ ، لما ولى الشرطة لواليها سليمان بن غالب . ولما صُرف سليمان فى هذه السنة عن إمرة مصر ، وتولاها السرىّ بن الحكم لثانى مرة ، جعل غير عياش على

(١) ج ٢ فى الكلام على أبى تمام فى ذكره خلافة الواثق .

شرطته . بعد هـذا تسكت كتب التاريخ سكوتا تاما عن ذكر عياش هذا[1] . ولكن ديوان أبي تمام ينبيء أنه مات ، وأن أبا تمام هجاه بعد موته ، كما هجاه فى حياته . وأغلب ظنى أن أبا تمـام اتصل به فى ولايته الشرطة لا بعدها ، وفى شعره ما يشعر أنه كان كذلك أيام اتصال أبي تمام به ، يقول :

يَهولُكَ أَن تلقـاه صَدْرا لمحْفِلٍ ونَحْـرا لأعداء وقَلْبًـا لموكِبِ

وآخر اتصل به أبو تمام اتصالا لا نعرف مكانه ، وهو المطلب بن عبد الله الخزاعى . وقد كان والى مصر ، مرة سنة ١٩٦ من قبل الأمين ، وثانية سنة ١٩٨ من قبل المأمون ، وثالثة سنة ١٩٩ بعد أن ثار أهل مصر ، وأخرجوا المطلب من السجن ، وكان فيه بأمر الخليفة منذ عزل سنة ١٩٨ ، فاضطر الخليفة إلى قبوله ، حتى ثبتت قدمه فى العراق بقتل الأمين ، فأرسل إلى مصر واليا جديدا ومعه جيش ، فقاتله المطلب ، ولكنه هُزِم وهرب إلى مكة فى سنة مائتين ، وكان هذا آخر عهد المطلب بمصر .

يظهر بعد ذلك المطلب فى العراق مع المأمون تارة ، ومع إبراهيم بن المهدى أخرى ، فى أحداث سنة ٢٠١ ، ثم مع المأمون ثالثة ، حتى يسجنه إبراهيم بن المهدى ، ثم يخلى سبيله ، وذلك سنة ٢٠٣ فى ذى الحجة . و بعد ذلك يختفى هو الآخر من التاريخ ، فلا نجد له ذكرا .

وقرب ولاية عياش بن لهيعة الحضرمى الشرطة ، من ولاية المطلب مصر فى الزمن ، يجعلنى أرجح أن أبا تمـام شهدَ مصر فى ولاية المطّلب لها ، فمدحه مدائح لم يذكرها ديوانه ، ولكن ذكر لنا بيتين أشرت إليهما ؛ فيهما ما يدل على أنه مدحه كما مدح فى تلك الأيام أيضا عَيّاش بن لَهِيعة الحضرمى .

* * *

وتحقيق حياة أبي تمـام لا يتأتى إلا من قبل مقارنة شعره بأحداث التاريخ ، ولكن هذا الشعر لم يأتنا كاملا ؛ فمدائحه فى المطلب ليست بين أيدينا ، وصلته به لا تتضح أى اتضاح فى ديوانه .

وكذلك الجَلُودِىّ الذى يهجوه دون أن نعرف سبب هجائه .

وهناك ما يساعد على الظن أن أبا تمّام كان يعمد إلى بعض شعره فيثبته ، ولا يثبت بعضه الآخر ، ويرى ذلك واضحا فى العُجالة التى ختمت بها نسخة ديوانه ، المستحضرة حديثا من مكتبة الأسكوريال ، فإن بعضها منقول عن قراطيس كتبها أبو تمـام بنفسه ، وحملها القالى معـه إلى الأندلس ، وأكلها

(١) قرأت أخيرا فى صفحات ملحقة بشرح التبريزى على ديوان أبي تمـام عن هذا ، أن أبا تمـام أقام عنـد عياش مدة يستبطئه ويستزيده ، فلم ينل منه خيرا . ومات عياش ، فرحل أبو تمام عن مصر الى الشام ، فمدح بها أبا المغيث . وهذا يؤيد ما ذهبت إليه . (مخطوطة بدار الكتب المصرية ٥٠ أدب ش) .

ناسخها من كتابات أخرى للقالى ، ومن رواية الصولى لديوان أبى تمام . وقارئ شعره لا يلبث طويلا حتى يعرف أن كثيرا من شعره ، وخاصة ما قاله فى أوائل اشتغاله بالشعر، ليس مذكورا فى ديوانه . ولو تهيأ لنا شعره كاملا، لوجدنا فيه فائدة لا أشك فى قيمتها، فى تحديد كثير من خطواته ظل غامضا .

ويظهر أن أسلوب ذلك العصر كان يميل إلى شىء من التظاهر بصغر السنّ ، وأنّ أنصار أبى تمام كانوا يروّجون ذلك عنه تعظيما لشأنه . وفى شعر أبى تمام نفسه ما يثبت أن الحديث عن السنّ والشيب ، لم يكن حديثا يقصد فيه إلى الحق ، وإنما كان تقليدا من التقاليد الشعرية ، أشبه شىء بالحديث عن الديار والأمكنة وذكر أسمائها . فهو يقول فى قصيدته التى يمدح فيها آل النبىّ :

وإنّ الذى أحْذانىَ الشيبَ لَلّذى رأيتُ ولَمْ تكمُلْ لى السبعُ والعشرُ

فكأن الشيب أصابه قبل أن يبلغ السابعة عشرة . ويقول فى أخرى فى مالك بن طوق :

أَوَ ما رأتْ بُردىَّ مِن نسجِ الصِّبا ورأتْ خِضاب اللهِ وهو خِضابى

والواضح فى تاريخه أنه لم يتصل بمالك هذا فى العراق قبل أن تبلغ سنه السابعة عشرة ، سواء كانت ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ . وعندى أن ذكر الشيب ، وصغر السن واجتماعهما معا ، كان من قبيل الغزل ، وذكر الصدود ، وادّعاء الحب والوله ، جريا وراء التقليد الشعرى العربى ، من استفتاح القصائد بالغزل ، ومحاولته تصوير الحب والتهويل فى أمره ، مع أنه لا يكون شىء من ذلك وقع أصلا . ولست أمنع أن يكون صدق فى بعضها ، ولكننا لا يمكن أن نصحح له من ذلك إلا ما اتفق مع التاريخ المعروف الموثوق به . وإن فى تكذيب الصولى لما اختص بذكر سن أبى تمام فى قصته مع الكندى ، بمجلس أحمد بن المعتصم ، ما يلقى نورا كثيرا على نوع القصص التى كان أنصار أبى تمام يشيعونها حوله .

ولست أول من شك فى قصة موت أبى تمام شابا ، فقد شك فيها قبلى ابن خلكان ، فعلق على قولهم عنه : "إنه مات وقد نيف على الثلاثين سنة" بقوله : "وهذا يخالف ما سيأتى من تاريخ مولده ووفاته" . ثم يذكر بعد ذلك سنى مولده ، على اختلاف الروايات ، كما بينت سابقا ، وبينها ولادته سنة ١٧٢ ، ووفاته سنة ٢٣٢ ، فجعل بذلك سنه ستين عاما فى قول .

* * *

إن الفترة السابقة لسنة ٢١١ من حياة أبى تمـام غامضة، لا يكاد يتبين فيها الإنسان شيئا تبينا جليا واضحا، إلا من قبيـل تصيُّد الأحداث تصيُّدا، مع تعرض كل خطوة من خطواته لاحتمالات كثيرة. أما وضع اليد على نص صريح قاطع يؤيد ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ فليس الآن ممكنا. غير أنى أكثر ميلا، بعد كل ما ذكرت، إلى جعل ميلاده سنة ١٧٢ . فإن هذا الفرض يحلو كثيرا من الغموض، الذى يعتور كثيرا من شعر أبى تمـام .

فإذا تهيأ لك مثلى هذا الميل الذى تهيأ لى ، كان من السهل اعتمادا على ما سبق ذكره ، أن تتبع خطواته على طريق رُبّمـا لا يكون أغلظ كثيرا من سلك لاعب مخاطر .

فنقول إنه ولد سنة ١٧٢ ، وكان بمصر حول سنة ١٩٥ ، حيث يغلب سلطان طيء، فيكون على ولايتهـا جابر بن الأشعث الطائى، وعلى شرطتها طائى أيضا . وحيث يكون الوالى سنة ١٩٦ المطلب بن عبد الله الخزاعى أول مرة ، ثم سنة ١٧٨ ثانى مرة ، وهو ممدوح أبى تمـام . وحيث يتصل أبو تمام أيضا بعيَّاش بن لهيعة الحضرمى، الذى تولى الشرطة بعد ذلك سنة ٢٠١، ثم اختفى من التاريخ ، ولكن أبا تمـام اتصل به قبل ذلك . وهو يترك مصر إلى الشام سنة ١٩٨ هـذه ، فيلبث بعضها فى دمشق يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى . ولكنه لاينال منه كثيرا فيهجوه، وينحدر إلى الرَّقة، حيث محمد بن حسان الضبى، ثم يتركه إلى أذربيجان حيث على بن مُرّ، فيصادفه أبو تمـام، ثم يتركه بعد ذلك إلى كُوَر الفرات، فيكون هناك سنة ٢٠٠ يمدح مالك بن طوق، ويتحدث عما بين أحياء تغلب من خلاف . وفى خلال ذلك أو قبله يكون الحسن بن سهل عاملا فى إخضاع العراق للمأمون، فيمدحه أبو تمـام ولكنه لا ينال منه كثيرا، أو أن مدحه له يقطعه فجأة جنون الحسن ابن سهل سنة ٢٠٣ ووضعه فى الحديد ، فيأخذ فى مدح من ولى أمر الجند بعده : جعفر بن دينار (على ما هو مكتوب فى الديوان) . بعد ذلك تأتى فترة غامضة من حياة أبى تمـام، يمكن أن نضع فيها قصيدته فى آل بيت النبى. يظل هذا الغموض مخيما حتى سنة ٢١١، فينقشع عن أبى تمـام فى مصر ثانية يمدح عبد الله بن طاهر فى مقدمه إليها، لإخضاع ثورة السَّرىّ بن الحكم . وليس فى التاريخ ذكر لمقدم أبى تمـام مصر مرة ثانية، ولكن ليس فيه أيضا ما ينقض ذلك . ومتى كان فى التاريخ عناية بتاريخ أبى تمـام أو وضوح ؟

فى فترة الانقطاع هذه يمكن أن نضع قصائد لايبين فى تاريخ أبى تمام متى وضعت، كالقصيدة فى أبى عبد الله حفص بن عمر الأزدى من خراسان . ويمكن أيضا أن نقول إنه صنف فيها مختاراته الكثيرة، وأشهرها الحماسة . فيكون أبو تمام فى ذلك قد اتجه إلى ناحية العلم .

بعد سنة ٢١٠ تستقيم حياة أبى تمام وتتضح حتى آخر أيامه ، كما سنرى .

وإن لم يتهيأ لك هذا الميل، فلست ألزمك إياه . وما تحدثت عنه هنا إلا أمانة للتاريخ، عله يبدى يوما صفحته فلا ألام .

أما الرأى السائد، إذا صرفنا النظر عن هـذه الشكوك، وأبينا إلا إحسان الظن بتصريحات أبى تمام، وهدمنا الشبهات السابقة، فيترتب عليه قبول أن أبا تمام ولد سنة ١٨٨

وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن أبا تمام ولد فى جاسم، كما بينت سابقا، قرية من قرى الشام تقرب من دمشق .

٣ — نشـأته

(ا) فى الشام : ولا أظنه نشأ إلا كما ينشأ أبناء الفقراء من أهل عصره . يرسل إلى كتّاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة، وليحفظ القرآن الكريم . ودعك من ذكر نصرانية أبيه، فما كانت إلا افتراء من افتراء خصوم أبى تمام . وقد حفظ أبو تمام القرآن كما يبدو ذلك من شعره . ولكنا لا نعلم أكان ذلك فى كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعها الأكبر . وأغلب ظنى أنه حفظه فى مصر، فلم يترك أبو تمام طويلا فى الكتّاب .

وكان أبوه عطارا بدمشق، يكسب قوته من عمله، فلم يلبث أن أخرج ابنه من الكتاب، ليودعه عند حائك بدمشق يخدمه، ويعمل عنده — على حدّ تعبير ابن خلكان — حتى يتعلم صنعة يعيش من ورائها . يقول ابن عساكر فى "تاريخ دمشق" فى سند ينتهى إلى يحيى بن صالح أبى الوليد، قال: "رأيت أبا تمام الطائى، حبيب بن أوس بدمشق، غلاما يعمل مع قزاز . كان أبوه حمارا بها"[1].

— (ب) الرحلة إلى مصر : وقد عمل الغلام زمنا لا نعرف مداه . ولم يكن يخيل لأبيه أوس، أن هذا الفتى الذى لم يزد أمله فيه على أن يكون صانعا يكسب قوته بعرق جبينه، سيصبح سيد شعراء العربية . ولكن الولد كان أكبر همّة مما ظن أبوه، فلم يلبث أن رحل إلى مصر، رحل إليها رحلة

(١) ج ٨ ص ٢٧٩

ليست على ما نظن أكثر من رحلة المغامرين، يطلب الغـنى حيث يأمل، بعد أن لم يجـده حيث كان، ولكن الصولى يقول لنا نقلا عن البحترى إن أبا تمـام قال له : أول شعر قلته :

* تَقِى جَحَاتِى لستُ طوْعَ مؤنِّبى *

ومدحت بها عياش بن لهيعة ، فأعطانى خمسة آلآف درهم (١).

فإذا كان هذا أول شعر قاله أبو تمـام فإن قصيدته :

أَظَبْيَةَ حيثُ آستنَّتِ الكثبَ العُفْرُ ... رويدَكِ لا يغتالُكِ اللـومُ والزجرُ (٢)

التى يمدح فيها آل بيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، يصرح فيها بأن سنه يوم قالها لم تكن بلغت السابعة عشرة، فهو يقول منها :

وإنّ الذى أَحْذَانِىَ الشيبَ لَلَّذى ... رأيتُ ولم تكمل لِىَ السبعُ والعَشْرُ

وهى بمقتضى ماينقل البحترىُّ عن أبى تمام، ليست أول قصيدة لأبى تمـام، فإن أبا تمـام قد نزل مصر قبل السابعة عشرة بكثير . إذ بقى فى مصر ما لا يقل عن خمس سنوات :

أَخمســةُ أحــوالٍ مضَتْ لِمغِيبِهِ ... وشهران بل يومانِ تُكْلُّ مِن الثكلِ

أما الفترة التى يمكن أن نؤكد أن أبا تمـام كان خلالها فى مصر، فهى من سنة ٢١١ إلى سنة ٢١٤، قضى جزءا من هذه الأخيرة فى مصر، وجزءا فى العراق :

لَعَمْرى لقـد كانت بمصرَ وقيعـةٌ ... أقامت على قَصْدِ الهدى كلَّ مائلِ
على الخندقِ الأقصى وما كان حولَهُ ... وما قـد يليـه مِن فضاءٍ وساحلِ
رأى آبنَ السرىّ النصرَ أولَ يومِهِ ... وأودى بِقَرْمٍ مِن أبى السرو باسلِ
لَوَيْنَ جموعَ آبنِ السرىّ وخيـلَهُ ... شَماطيطَ تترى كالنعـامِ الجـوافلِ
فلمَّـا رأوا أنْ لا محيصَ وأنهُ ... كِفاحُ الردى فى كلِّ حَق وباطلِ
توخَّوْا أمانَ الأريحىّ آبنِ طاهرٍ ... فمِن فارسٍ يأتيـه طَوْعًا وراجلِ (٣)

وفى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤، قتل أهل الحوف الثائرون والى مصر عُمَيْر آبن الوليد (٤)، فقال أبو تمـام قصيدته :

أَعِيـدِى النـوحَ مُعْـوِلةً أَعِيـدِى ... وَزِيدِى مِن بُكائِكِ ثم زِيدِى

(١) أخبار الصولى : ورقة ٥٤ ظ (٢) ديوانه : ص ٨٠ (٣) القضاة والولاة للكندى : ص ١٧٩
(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٠

ومنها :

ألَا أبلِغْ خليفتنا مقالي ... وأبلِغْهُ الأمينَ بن الرشيد
بأنَّ أميرنا لَمْ يألُ عدلا ... ونصحا فى الرعايا والجنودِ

* * *

فيا يوم الثلاثاءِ اصطبحْنا ... غداةَ منك هائلةَ الوُرودِ

* * *

حضرتُ فناءَ بابِك فاعترانى ... شَجًا بين المخنَّقِ والوريد
رأيتُ به مَطايا مُهْمَلاتٍ ... وأفراسا صوافنَ بالوَصِيد[1]

وقال غيرها . وفى رجب سنة ٢١٤ يهزم عيسى بن زيد الجَلُودىّ[2] ، فى النُّويرة، وهو يومئذ والى مصر من قِبَل المأمون للمرة الثانية ، وهازموه هم الثائرون . فيقول أبو تمام فى ذلك ، يمدح الثائرين من القيسية واليمانية ، ويذم الجلودى :

اللهُ أرهقك الهزيمةَ إذْ[3] ... جذبتْك أحبالُ الردى جذبا
وأتتك خيلٌ، لو صبرتَ لها، ... أنهبْنَ روحَك فى الوغى نهبا
من حَىِّ عدنانٍ وإخوتهم ... قحطانَ لا ميلا ولا نُكْبا[4]

ولكن وجوده فى هذه الفترة معناه أن سِنه كانت ، على فرض ولادته سنة ١٨٨ ، تزيد على عشرين سنة يوم دخل مصر، إذا قدرنا أنه لم يظل فيها أكثر من خمسة أحوال، كما قال، فيكون أول شعر قاله ، هو بعد سن العشرين . مع أنه يصرح فى شعر ليست له هذه الأولية أن سِنه لا تزيد على سبع عشرة سنة . كما أننا لا نسمع عن ممدوحه عيّاش بن لهيعة الحضرمى بعد سنة ٢٠١ فى مصر . فلا يبقى ليلائم بين هذه كلها إلا القول بأن أبا تمام نزل مصر مرتين ، ثانيتهما هى هذه التى بدأت سنة ٢١١، وانتهت برحيله إلى العراق سنة ٢١٤

أما المرة الأولى فتكون حول سنة ٢٠١ ، ومعنى ذلك أن أبا تمام نزل مصر وسنه لا تزيد على اثنتى عشرة سنة ، وبرحها ولما يبلغ السابعة عشرة . ونكون بذلك أمام فتى يفعل المعجزات، ويهاجر فى طلب الثروة طفلا، أو مدفوعا بعامل لا نعرفه، ويكافح فى مصر كفاحا فيه ما فيه من

(١) ديوان ص ٢٠٩ (٢) الكندى ص ١٨٦ (٣) الديوان : ص ١٧٩ (٤) ميلا : جمع أميل . والأميل، من لا ترس معه أو لا سيف أو لا رمح، والجبان . والأنكب : من لا قوس معه .

عناء لحدث مثـله ، فيحصل العلم فى جامعها الأكبر ، و يعيش من سقاية المـاء أو من عمل آخر ، لم يبين لنا التاريخ ما هو .

(ج) حياة أبى تمـام فى مصر : كانت مصر ، كما هى اليوم ، قبلة أنظار العالم الإسلامى ، ومطمع طلاب الغنى والجاه ، ومعهد كثير من الجمال يجتذب القلوب . وكان جامع عمرو فيها مستقر مدرسة من أعظم المدارس الإسلامية . ونظرة فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى ، كافية لإطلاع الانسان على مبلغ عظمة الحركة العلمية فى مصر يومئذ .

ولقـد نزل الشافعى مصر سـنة ١٩٥ "وصنف كتبه الجـديدة كالأم ، والأمالى الكبرى ، والأمالى الصغرى ، ومختصر البُوَيْطى ، ومختصر المُزَنى ، ومختصر الربيع ، والرسالة ، والسنن . قال آبن زُولاق : صنف الشافعى نحوا من مائة جزء ، ولم يزل بها ناشرا للعلم ، ملازما للاشتغال بجامع عمرو ، إلى أن أصابتـه ضربة شـديدة ، مرض بسببها أياما ، ثم مات يوم الجمعة سلخ رجب سـنة أربع ومائتين"[1] . هذا ما يقوله السيوطى ، ولست أظن أنه صنفها جميعا فى مصر .

وعلى كل حال ، فمصر كانت ذات أثر سحرى فى الشافعى ، فى غزارة إنتاجه ، وتوجيه مذهبه ، وتصفية ذهنه . ولقد أبان أستاذنا أحمد أمين هذا فى كتابه "ضحى الإسلام" فى فصل ممتع .

وكان الشافعى فى مصر ، فى تلك الفترة التى استنتجت أن أبا تمـام كان فيها فى مصر يتردد على جامع عمـــرو .

وكان قبل الشافعى فى مصر فقهاء عظام ، كالليث بن سعد المصرى وتلاميـذه . وكان فيها أيام الشافعى من الفقهاء إسحق بن الفُـرات أبو نعيم التُجيبى ، صاحب مالك . قال الشافعى : ما رأيت بمصر أعلم باختـلاف الناس من إسحق بن الفرات[2] . و روى عن الليث وغيره ومات سـنة ٢٠٤ وأشهب بن عبد العزيز العامرى ... قال الشافعى : "ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه" . ومات سنة ٢٠٤ ، وعبد الله بن عبد الحكم بن أَعْيَن بن ليث بن رافع المصرى ... وَثّقه آبن زُرْعة وغيره . ولد سنة ١١٥ أو سـنة ١١٤ وغير هؤلاء كثيرون ؛ ممـا يدل على أن الحركة يومئذ ، كانت قوية جارفة ممتلئة حياة .

وكان فى مصر فى تلك الفترة آبن هشام ، الذى اختصر كتاب السـيرة لابن إسحاق . وكان إماما فى اللغـة والنحو والعربيـة ، أديبا أخباريا نسابة . قال الذهبى : سكن مصر ومات سـنة ٢١٨

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ص ١٣٦ (٢) المصدر نفسه ص ١٣٦

ثمان عشرة ومائتين . وقال ابن كثير : كان مقيما بديار مصر، وقد اجتمع به الشافعى حين وردها، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة[1] .

وقدم مصر من الشعراء، قبل أبى تمام، جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرى صاحب بثينة، ومات بمصر سنة ٨٣ هـ، ووردها أيضا كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥، وماتت بها عزة صاحبته، وبها دفنت، ووردها عبيد الله بن قيس الرقيات .

ووردها نُصيب بن رِياح الشاعر أبو مِحْجَن، من شعراء الحماسة، ووردها أبو نواس، وأقام بها مدّة[2] . وقدمها دِعبل فى عهد المطلب بن عبد الله الخزاعى . وكان دِعْبِل فى مصر حوالى سنة ٢٠٠، كما يبين من شعر له فى المطلب لما هزم آخر مرة[3] . وقدمها بعد أبى تمام كثيرون أيضا، منهم أبو العباس الناشى وكُشاجم والمتنبى وغيرهم .

ففى مصر أبدا ذلك القبس الخالد من المعرفة والإلهام والجمال المتفجر نوره، فى سحر يجتذب القلوب؛ ومصر التى هدت العالم من قبل، على ضوء حضارتها وجهادها فى سبيل البشرية، قد ساهمت، على مرور الأيام، فى بث هذا النور فى قلب كل من أودع الإنسانية ثمرة من عبقرية، أو أثرا من هداية .

* * *

نزلها أبو تمام بنفس وثابة، وقلب ذكى، وعلم بالقراءة والكتابة، وشىء لا نعرف قدره من الإلمام بصناعة الحياكة أو القزازة . فلم يلبث أن جرى لسانه بالشعر فياضا كالنيل، ينساب عذبا كمائه المحبوب . كان يتردّد على جامع عمرو، فيسمع من أساتذة أجلّاء، يطفئون ظمأه إلى العلم، ويطفئ ظمأهم إلى الماء . نزلها حائكا، وقذفت به أشعر شعراء العربية على الإطلاق .

وإنى لأتخيل ذلك الفتى الذى لم يَيْفَع أسمر اللون، طويل القامة بالنسبة لسنه، حلو الحديث، فيه تمتمة يسيرة؛ يختلط بعينيه بريق الذكاء بظل من ذلة الفقر، خفيف الروح، يتعثر فى ثيابه، وقد حنى رأسه قليلا تحت ثقل ذلك الوعاء، الذى يحمله على ظهره ليسقى منه الماء . وهو يتنقل من حلقة إلى حلقة، ويصغى إلى شىء من القصص، وإلى شىء من التاريخ، وإلى شىء من الشعر، وإلى شىء من الفقه، وإلى شىء من الحديث، وإلى شىء من الفلسفة؛ ويخلط هذا بذاك، ويحفظ ما استطاع أن يحفظ .

(١) حسن المحاضرة ص ٢٥٤ ج ١ (٢) حسن المحاضرة ص ٢٦٧ ج ١ (٣) القضاة والولاة ص ١٦١

(د) نواحى ثقافة أبى تمام : وكان أبو تمام ذا ميل إلى الأدب، فجالس الأدباء والشعراء، وأخذ فى تحصيل الشعر . فحفظ، على مايقول ابن خلكان، أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد . ولم يقل الشعر قبل أن يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء، فضلا عن الرجال، كما يقول ابن رشيق فى العمدة[1] . ثم قال أول شعره فيها كما ذكرت . ويستطيع الإنسان أن يتعرف نواحى دراسة أبى تمام فى سهولة، من مطالعة ديوانه . وأول شىء يأخذ بالنفس فى ديوانه من هذه الناحية هو :

أثر القرآن :

لا أعرف شاعرا من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبى تمام به . فإن القارئ لا يكاد يمضى فى الديوان، حتى يعثر بين خطوة وأخرى، بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم . ولأضرب مثلا لذلك قصيدته فى مدح المعتصم، وذكر إحراق الأفشين وصلبه، ففيها كأنما أخذ القرآن بلبه، وآستأثر بخياله . فمنها[2] :

مَكرا بنَى ركنَيْهِ إلَّا أنه وَطَد الأساس على شفير هارِ

ففيه شفير هار، وما أقربها من جُرُف هار .

ومنها :

طارتْ لها شُعَل يهدِّم لفحُها أركانَهُ هدما بغير غُبار

ففصلْن منه كل مجمع مَفْصِلٍ وفعلْنَ فاقرة بكل فَقَار

قال أبو بكر الصولى : إنما قال : وفعلن، فخص هذه اللفظة، لقول الله جل وعز : « تَظن أن يُفْعَلَ بها فاقرة » .

ومنها :

صَلًّى لها حيًّا، وكان وَقودَها مَيْتا، ويدخلها مع الفُجَّار

ومنها :

لو لَم يكدْ للسامرىِّ قبيلُه ما خارَ عجلُهمُ بغير خُوَار

وثمودُ لو لَم يُدْهِنوا فى ربهم لم تُرْمَ ناقتُه بسهم قُدَار

(١) فى مؤخرة شرح التبريزى لديوان أبى تمام رواية عن الجمل المصرى، قال : إنه خرج مع أبى تمام إلى شاطئ النيل بمصر، ودفعا بثيابهما إلى من يغسلها . فنام الجمل، وجلس أبو تمام ومعه شعر الطرماح، فما فرغ الرجل من دق الثياب حتى حفظ أبو تمام خمس عشرة قصيدة (٥٠ أدب ش) .

(٢) ديوانه ص ٧٥

ومنها :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثانٍ إذ هُما فى الغار

فها هى ذى سبعة مواضع ، فى قصيدة واحدة ، يقتبس فيها من القرآن لفظا ومعنى ؛ وفيها نفسها يشير إلى القرآن غير ذلك مرتين ، فيقول عن سعد بن أبى السرح :

حتى آستضاء بشعلة السُّوَرِ التى رفعتْ له سَجْفا عن الأسرارِ

ويقول :

سُوَرُ القُرآن الغُرُّ فيكم أنزلتْ ولكم تُصاغ محاسنُ الأشعار

والقصيدة كلها مثل لعلم أبى تمّام ، وثقافته ، وروح عصره . وقد أشرت فى مكان آخر إلى نقص فنه فيها ، من الناحية الإنسانية ، وآكتماله من الناحية الشعرية الخالصة . وهنا أشير إلى أنها تمثل ثقافة أبى تمام ، ففيها غير أثر القرآن أثر العلم بالتاريخ الإسلامى ، والأخبار الجاهلية ، والقصص الدينى .

وقطعة أخرى لم تذكر فى ديوانه ، قالها فى عبد الله بن طاهر فى خراسان لمّا حجزه ببابه ، هو وجماعة زمانا ، فكتبها فى ورقة ، وأرسلها إليه ، وهى (١) :

أيُّهذا العزيزُ قد مسَّنا الضـ ـرُّ جميعا وأهلُنا أشتاتُ
ولنا فى الرجال شيخٌ كبيرٌ ولدَينا بضاعةٌ مُزْجاةُ
قلَّ طُلابها فأضحتْ خَسارا فتجاراتُنا بها تُرَّهات
فآحتسبْ أجْرَنا وأَوْفِ لنا الكيـ ـلَ وصدِّق فإننا أمواتُ

ويقول :

قد أوتيتْ مِن كل شىءٍ نعمة وددًّا وحسنا فى الصِّبا مغموسا
لولا حداثتها وأنّى لا أرى عرشا لها لحسِبْتُها بِلْقِيسا

فما أبرع نقله فيهما عن الآية الشريفة :

« إنِّى وجدتُ آمرأةً تملِكُهُمْ ، وأُوتيَتْ مِنْ كلِّ شىء ، ولها عرشٌ عظيم » .

ويقول :

مِنْ كل سابغةِ الشبابِ إذا بدَتْ تركَتْ عَميدَ القريتيْنِ عميدا

(١) أخبار الصولى ورقة ١٠٤

يقول التبريزى فى شرحه :

« وإنما بنى هذا الكلام على الآية ، وهى قوله عز وجل : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ عَلَى رجلٍ من القَرْيتَيْن عظيم » .

ويقول فى وصف المطر :

هديَّةٌ مِن صمدٍ جَوَادٍ ... ليس بمولود ولا ولَّادِ

ويقول :

مَثَلْتَ له تحت الظلام بصورةٍ ... على البعد أقنَتْهُ الحياءَ مُصمَّما

كيوسفَ لمَّا رأَى برهانَ ربِّهِ ... وقد هَمَّ أنْ يَعْرورِىَ الذنبَ أحْجما

ويقول :

لمَّا وَرِدْنَ حِياضَ سَيْبِك طُلَّحا ... خَيَّمْنَ ثم شَرِبْنَ شُربَ الهِيم

ومنها :

أخرجتَهُمْ بل أخرجَتْهُم فِتنةَ ... سلبتْهُم مِن نَضْرةٍ ونعيم

نقلوا من الماءِ النَّميرِ وجَنَّةٍ ... رَغَدٍ إلى الغِسلينِ والزَّقُّومِ

ويقول :

طَوَى أمْرَهم عَنْوةً فى يدَيْ ... ـه طىَّ السِّجِلّ وطىَّ الرِّداء

ويقول :

فاللهُ قد ضرب الأقلَّ لنورِهِ ... مَثَلا مِن المِشْكاةِ والنِّبْراسِ

ويقول :

كأنَّ بلاد الروم عُمِّمْتْ بِصَيْحةٍ ... فضمَّتْ حَشَاها أَورَغاوَسْطَها السَّقْبُ

ويقول :

وبَيَّن اللهُ هذا مِن بريَّتِهِ ... فى قوله "خُلِق الإنسانُ مِن عَجَلِ"

فإن يكفِ هذا ، وإلا فإن الرجوع إلى الديوان كفيل بأن يمدك بالكثير منه ؛ وإن كنت أطلت فى تعداد الأمثال ، فما ذلك إلا لأنى وجدت فى تلك الاقتباسات والتضمينات مُثُلا خلَّابة لحسن الاستفادة ، وسلامة الذوق ، وحلاوة العبارة .

أثـــر التـاريخ :

وناحيـة أخرى تلى هـذه الناحية أثرا فى ثقافتـه . وهى الإلمـام بأيام العـرب وتاريخهم ، فى الجاهلية والإسلام ، وقصصهم وأساطيرهم . وفى شـعره أيضا بعض إشارات موجزة إلى تاريخ الفرس ، كقوله :

لقـد أذكرانا بأْسَ عَمرٍو ومُسْهِرٍ وما كان مِن إسْـفَنْدِيارَ ورُسْتَمَـا

وهو يذكرها فى شعره ، فيجريها مجرى الأمثال ، للتدليل على قدرة ممدوحه . وهنا يظهر أثر هـذا العصر ، الذى أنجب آبن هشـام . ولا أظن إلا أن أبا تمـام قد رأى آبن هشام ، وسمع منـه . فقـد اجتمع ابن هشام بالشافعى فى مصر ، وبقى فيهـا إلى أن مات سنة ٢١٨ هـ ، أى أن وجوده فى مصر يضم بين ضِفَّتَيْهِ فترتَىْ وجود أبى تمّـام فى مصر . وأبو تمـام كثير التمثل بأحداث التاريخ ، فى كل مناسبة تعِنُّ له ، فى تصوير الحرب ، وفى الرثاء ، وفى المدح ؛ وأذكر لذلك أمثلة :

يقول أبو تمـام :

كم وقعـةٍ لِى فى الهـوى مشهورةٍ ما كنتُ فيهـا الحارِثَ بنَ عُبادِ

يقول التبريزى (ج ٢ ص ٢٧) : "يعنى أن الحارث بن عُباد اعـتزل حرب بكر وتغلب حتى قتـل آبن أخيه جبير . والقصة مذكورة بوضوح فى مجمع الأمثال للميدانى ، فى الكلام على المثل :

" أشأم مِن البَسوس " . وهى رائعة ، تمتزج فيها الإنسانية ، بالحـلم ، بالرجولة ، بالشـعر ، امتزاجا أخاذا ، يُرى مبلغ ما أراد أبو تمـام أن يهـز من نفس قارئه أو سامعه ، بتذكيره بالقصة ، ويقول الحارث فيها :

لَمْ أكُنْ مِن جُناتِهـا عـلِمِ اللَّـ ـهُ وإنِّى بحرِّهـا اليـومَ صـالِى

ويقـول :

تُرَفُّ إليكم يآبن نَصْـرٍ كأنَّهـا حليـلةُ كسرى يـومَ آواهُ قيصرُ

ويقـول :

لهم يـومُ ذى قارٍ مضَى وهـو مفـردٌ وحيدٌ مِن الأشـباهِ ، ليس له صَحْبُ
به علمتْ صُهبُ الأعاجـمِ أنـهُ به أعربتْ عن ذاتِ أنفسِها العُـرْبُ
هـو المَشهدُ الفصْـلُ الذى ما نجا به لِكسرى بن كِسرى لا سَنَامٌ ولا غَرْبُ

يقول التبريزى فى شرح البيت :

"أى به علمت الأعاجم، ما كانت تنطوى لها عليه العرب، من طلب الفرصة للوثوب عليهم".

ويقول :

إنَّ خيرا مما رأيت من الصفـ ـح عن النائباتِ والإغماضِ
غُرْبةٌ تقتدى بغربةِ قيسِ بـ ـنِ زهيرٍ والحارثِ بنِ مُضاضِ

ويقول :

أمواقف الفتيان تطوِى لم تزر شوقا ولم تندُب لهنّ صعيدا ؟
أذكرتنا الملك المضلَّلَ فى الهوى والأعشَيْنِ وجَرْوَلا ولَبيدا
حلّوا بها عِقْدَ النسيبِ ونمنموا مِن وَشْيِها رَجَزا بها وقصيدا[1]

وقد يطيل فى ذلك إطالة محببة، كقوله مادحا إسحاق بن مصعب، ذاكرا إيقاعه بالمحمّرة من أصحاب بابك، يقول عن إيقاعه بهم :

محَوتَ بها وقائع من ملوكٍ وكُنّ وقد مَلأْنَ الخافقَيْنِ
صَبِيحَةَ خازِرٍ أنستْ، ومهوَى عُبيدِ الله فيها والحُصَينِ
وفَيْفَ الريح إذ دلفتْ معدٌّ بأجمعها وأسرةُ ذى رُعَين
وأيامَ الذنائبِ زعزعتْها ويومَ مُهلهِلٍ والشعثَمَيْن
وأيامَ الكُلابِ غداةَ هَرَّتْ مُرَارِيَّيْن فيها مُترفَيْن
أخٌ تركتْ أسنّتُهُ أخاه كَلِيلا للجبين وللَيدَين
ومِن ساتيذَ ما بروَانَ فلّتْ شَبا نُجُرٍ فسيح الطائفَيْن

(١) يتحدث أبو تمام فى هذه الأبيات عن مواقف الشعراء بالأطلال، وقد بكاها فى أول القصيدة، وكأنما كان يساوره أن يدع هذا البكاء، ويقلع عن هذه السنة، ولكنه لم يستجب لما خالجه، فبكاها. فهو يسائل نفسه متعجبا من هذا الذى خطر له، وهو الذى قد أبدع فى وصفها، والوقوف عندها إبداعا يذكر بالشعراء الذين ذكرهم، وهم من قد زانوا بهذه الوقفات على الأطلال عقود نسيبهم، وزخرفوا بوشيها أرجازهم وقصائدهم. هذا إذا كان الفعل حلى من الحلية. فإذا كان الفعل حل، من الحل ضد العقد، وعقد جمع عقدة، كان معناه أنهم روضوا بهذا الباب من الغزل ما امتنع من النسيب، فأوجدوا به لأنفسهم مجالا للقول؛ فإذا فهمنا فى باء "بها" معنى "فى" كان لنا أن نعتبر حل العقدة بمعنى الفيض بالقول كما يسيل ماء السحابة إذا انحلت عقدتها. أى أنهم لما وقفوا بها حركت أشجانهم، ففجرت ألسنتهم بالشعر نسيبا؛ وقد تكون العبارة أذكرتنا، ونون النسوة فيها تعود على المواقف.

بَلَا فيها إياسُ كلِّ لَدِنٍ وكل مُصمِّمٍ فى العظمِ لَيْنِ
وحُجْرا وامرأ القَيْس بن حُجر ليالَى كاهلٍ وبنى قُعَين
ويومَ البِشْر أنستْهُ وهدَّت وقائعَ راهطٍ وبناتِ قَيْن
ويوم المصدفيَّة حين ساموا أبو شِرْوان خَطْبا غير هَيْن
ولكنْ أذكرتْنَا يومَ بدر ومشتجَرَ الأسنّة فى حُنَيْن

ويقول مشيرا إلى تاريخ الإسلام فى عزاء مالك بن طوق فى أخيه :

وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصبرُ للبلوى عزاءً وحِسبةً فتؤجرَ ، أم تسلو سلوَّ البهائم ؟
وللطَّرَفاتِ يومَ صِفِّينَ لم يمُتْ خُفاتًا ولا حزنا عدىُّ بنُ حاتِم (١)

ويقول فى تاريخ الرسول ذاكرا عليا :

يُسدّ به الثغرُ المخوفُ من الردَى ويَعتاضُ من أرضِ العدوِّ به الثَّغرُ
بأُحُدٍ وبدرٍ حينَ ماجَ برَجْلِهِ وفُرسانه أُحُدٌ وماج بهم بدرُ
ويومَ حُنَينٍ والنَّضيرِ وخَيْبرٍ وبالخندق الثاوِى بعَقْوَتِه عَمْرُو

ويقول فيما كان بين النبى وسعد بن أبى سرح فى شأن الوحى :

هذا النبىّ وكان صفوةَ ربِّهِ مِن بين بادٍ فى الأنام وقارِ
قد خَصَّ من أهل النفاق عِصابةً وهمُ أشد أذى من الكفار
واختار من سعدٍ لَعينِ بنى أبى سَرْح لوحْىِ اللهِ غيرَ خِيار
حتى استضاء بشعلة السُّور التى رفعت له سُجُفا من الأستار

ثم يقول :

والهاشميون استقلَّتْ عِيرُهم مِن كَرْبَلاءَ بأوثقِ الأوتارِ
فشفاهُمُ المختارُ منه ولَمْ يكُن فى دينه المختارِ بالمختار
حتى إذا انكشفَتْ سرائرُه اغتدَوْا منه براءَ السَّمْعِ والأبصارِ

وغير هذا كثير، مما يدل على طول باع فى العلم بالتاريخ .

(١) والطرفات ، محركة : بنو عدىّ بن حاتم ، قتلوا بصفين ، وهم طريف ، وطرفة ، ومطرّف .

روايته بعض الأحاديث :

ولأبي تمام ذكر في المحدثين . ففي تاريخ دمشق لابن عساكر، أنه روى حديثا عن رسول الله . وهذا الحديث اتصل بالحافظ بن عساكر نفسه، وأسماء الرواة فيه مضطربة لكثرة الخطأ بالكتاب .

قال الحافظ : أخبرنا أبو الحسن، أنبأنا القاضي أبو المظفر بن إبراهيم بن نصر النسفي، أنبأنا عبد الحي بن عبد الله بن موسى الجوهري بن الفضل الشاعر، أنبأنا خالد بن يزيد الشاعر، حدثني أبو تمام : حبيب بن أوس الشاعر، حدثني صهيب بن أبي الصهبان (أو الصهباء) الشاعر، حدثني الفرزدق هَمَّام بن غالب الشاعر، حدثني عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الشاعر، حدثني أبي حسان ابن ثابت الشاعر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياحسان، اهجهم وجبريل معك . وقال : إن من الشعر حكمة . وقال لي : إذا حارب أصحابي بالسلاح، فحارب أنت باللسان" انتهى .

واتصال موضوع الحديث بصناعة أبي تمام وعمله، لا يدل على أنه كان يطلب الحديث طلب المخصص له جهدا . ولكنه يدل على أنه اتصل بالمحدثين .

روايته الأدب :

وقد روى أبو تمام في الأدب عن كثيرين، ذكرهم الصولي في كتابه "أخبار أبي تمام"[1] ولا يلزم في روايته أن يكون اتصل بمن روى عنهم . فقد روى عن الحطيئة مثلا[2] ؛ وممن روى عنهم كرامة بن أبان العدوي، وأبو عبد الرحمن الأموي، وسلامة ابن جابر النَّهدي، وقِلابة الجَرْمي، ومحمد بن خالد الشيباني، وغيرهم .

ورواياته عن هؤلاء جميعا في الأدب : عبارات قصيرة موجزة أشبه بالحكمة، والمثل السائر . وأضرب مثلا لها[3] . يقول الصولي : "حدثنا أحمد (بن أبي طاهر) ، قال : حدثنا أبو تمام، قال : حدثنا كرامة، قال: تكلم رجل في مجلس الهيثم بن صالح، فهذر ولم يصب، فقال له : يا هذا، بكلام أمثالك رزق الصمت المحبة" . وجميع رواياته تشبه هذه .

اتصاله بالمذاهب في عهده :

في شعر أبي تمام إشارات إلى بعض المذاهب الفلسفية، المتصلة بالدين والسياسة في عصره، لا يستعمل منها مذهبا استعمال المعتنق له (إلا مذهب الانتصار لعلي وشيعته) يتناوله في قصيدة طويلة مذكورة في ديوانه . أما الباقي فإشارات موجزة، كقوله في وصف الخمر :

(١) ورقة ١١٢ وما بعدها . (٢) ورقة ١٢١ (٣) ورقة ١٢٣

جَهْمِيّـةُ الأوصافِ إلّا أنهم قـد لقّبوها جوهر الأشيـاء

وكقـولـه :

فـلو صحّ قولُ الجعفـريّة فى الذى تنُصّ من الإلهام خِلناك مُلهما

وقد يستعمل بعض الألفاظ الفلسفية فى شعره، كقوله :

صاغهم ذو الجلال مِن جوهر المجـ ـد وصاغَ الأنامَ مِن عَرَضهْ

وهو يجـيز لنفسه استعمال آصطلاحات علميـة فى الشعر ، كقوله ، وفيها آصطلاحان من آصطلاحات الفقهاء :

فإنْ يكُ ذنبٌ عزَّ أوتَكُ هفوةٌ على خطأ منى فعـذرى على عَمْـدِ

ويقول فى وصف الخمر :

خرقاءُ يلعب بالعقول حَبَابُها كتلاعب الأفعالِ بالأسمـاءِ

وقد يشير إلى النجوم إشارات تنبئ عن آتصال بعلم التنجيم ، وقد أزهر فى عصره ، يقول :

لهُ كبرِياءُ المشترِى وسعودُه وسَوْرة بَهْرامٍ وظَرْف عُطارِدِ

وفى شرح البيت منقول عن الخارزنجى ما يأتى[1] :

"المشترِى كوكب العظماء والملوك ؛ وبهرام هو المَريخ ؛ وهو كوكب السلطان ؛ وعطارد كوكب الكتّاب والأدباء". وهى معان أشبه بمـا نعرف من رموز اليونان إلى آلهتهم .

ويقول فى مكان آخر، فى مدح نوح بن عمرو السكسكى :

مَناسِبُ تُحسَب مِنْ ضوئها مَنـازِلا لِلقـمر الطـالعِ

كالدَّلو والحوت وأشراطه والبطنِ والنجم إلى البـالعِ

وإلحاح أبى تمام على المنجمين فى عصره بالتهكم ، فيه ما يأنس الإنسان منه نظرة لاتجاهاتهم ، كقوله فى فتح عمورية :

السيفُ أصـدقُ أنبـاءً من الكُتبِ فى حدّه الحـدُّ بين الجِـدّ واللعبِ

بيضُ الصفائح لاسـودُ الصحائف فى متُونهن جِـلاء الشـك والرِّيبِ

وقد ذكر المنجمين فى موضع آخر أو أكثر بمثل هذا التهكم .

(١) ديوانه طبعة فوزما بيروت ص ٤٤٨

النحـــو :

ـــوألم أبو تمام بالنحو إلمـاما حسنا ، فلم يؤخذ عليه فى كثير من المواضع خطأ نحوى ، بل إن أحدهم ليعترض على بيته :

أغْرِتْ همـومى فاصطحبْنَ همومُها ، نومى ، وبِتْنَ على فُضـولِ وِسادِى

(وقد رويت فاصطحبن همومَها ، واستلبن أيضا) . اعترض عليـه بقوله ، إن اصطحب لا تأخذ مفعولا . فيردّ عليـه المرزوقى بقوله : " إن أبا تمـام كان سليم الشـعر . فالمراد اصـطحبن وقت نومى ، فالمصدر مستعمل بمعنى الظرف ، كما يقال آتيك طلوع الفجر[1] " .

ولكن أبا تمام فى نحوه كثير الاستعمال للغة طيىء .

(١) فهو كما رأينا فى بيته المـاضى يقول اصطحبن همومُها . وهى لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة" لغة طيىء . ونسبت أيضا إلى قبائل أخرى من اليمن مثل بَلحرث . ولكن إلحاح أبى تمـام عليها يوثّق الرأى القائل بأنها لغـة طيىء . يقول المرزوقى فى الكلام على البحث السابق : وقوله فضولها (أو همومها على اختلاف فى الرواية) ارتفعت باصطحبن ، والنون منه لم يجىء الضمير ، وإنمـا هى علامة تؤذن بالجمع ، كالتـاء فى قامت هنـد . وهذا أحد وجوه التأويل لهذه اللغـة . وهو كثير الاستعمال لهذه النون ، يقول :

وأَكْيِسْ بمُجْـدٍ عادَ فيـه نوالُهُ وشـاعرِ قومٍ عُدْنَ فيـه قصائدُه

ويقـول :

شجـا فى الحَشـا تَرْدادُه ليس يَفْـتُرُ به ضُمِّنَ آمـالِى وإنى لَمفطِـرُ

وينقل التبريزى عن أبى العلاء ، فى الكلام عن هذا البيت قوله :

" يبين فى كلام الطائى ، أنه كان يختار إظهار علامة الجمع فى الفعل ، فى مثل قوله : ضُمِّنَ آمالى . ولو قال صام آمالى ، لاستقام الوزن[2] " .

(٢) وفى مقابل هـذا يحذف علامة التأنيث التى تلحق المـاضى ، حين يكون فاعله جمع غير العاقل ، كقوله :

كم أنجبُـوا قمـرا جلَا أفعالُهُ قمـرا ، ومكْرُمة تُناغِى الفَرْقَدا

ولو قال : جلَتْ أفعاله لاستقام الوزن .

(١) شرح التبريزى لديوان أبى تمام ج ٢ ص ٢٧١ (٢) شرح التبريزى ج ٢ ص ٣١٤

(٣) ويستعمل أيضا من لغة طيئ "ذو" الموصولة، يقول :

أنا ذو عرفتَ فإن عرفتَكَ جهالةٌ فأنا المقيمُ قيامةَ العُذَّالِ

(٤) وفى شعره من لغة طيئ أيضا قوله :

هل أَوْرق المجدُ إلّا فى بنى أُدَدٍ أو اجتُنَى منهُ لولا طيِّئٌ ثمرُ

يقول التبريزى :

"إذا كان آخر الماضى ياءً وقبلها كسرة، فطيئ تقلبها ألفا فيقولون اجتُنَى، فى اجتنِيَ : واقتُدَى فى اقتدِيَ . ومن العرب من يسكن ، وهى لغة رديئة ؛ والأغلب أن يكون الطائى سكن الياء ههنا، ولم يستعمل اللغة الطائية"[1] . ولا أعرف أنا ما وجه إلزامه لغة رديئة غير لغة قومه ، مع أنه يتحرّاها فى كثير .

(٥) ويقول قوم من طيئ : "دَفْنُ البَناهِ ، مِنَ المَكْرُماهِ" ، موضع قول غيرهم : "دفن البناتِ، مِن المكرماتِ"

فيقول أبو تمام :

إحدى بَنِي بكرِ بنِ عبدِ مَناهِ بين الكثيبِ الفَرْدِ فالأمواهِ
أَلْقِى النصيفَ فأنتِ خاذلةُ المُنَى أُمنيّةَ الخالِى ولهو اللاهِى

ولقد كان أبو تمام، على ما يظهر، ذا علم بلهجات القبائل؛ فإنا نرى بيته :

ثانِيهِ فى كَبِدِ السماءِ ولَمْ يكُنْ لِاثنينِ ثانٍ إذ هُما فى الغارِ

وقد أثار ضجة بين النحاة، لما يجب من نصب ثان، خبرا ليكُنْ . ولكن يأتى الفرّاء فيقول : "إنها لغة عند العرب أن تأتى بالمنصوب فى لفظ المخفوض"[2]. ويندر أن يعتسف أبو تمام طريقه على غير القاعدة . ومن هذا النادر قوله فى هجاء عتبة بن أبى عاصم :

ثَكِلْتُ قصائدى إنْ مرَّ يومٌ ولمّا أقْضِ فيه منك نَحْبا
وكنتُ إذن كأَنْتَ فإنّ مثلِى إذا ما كان مثلَك كان كلبا

فاستعمال ضمير الرفع أنت بعد الكاف لا أعرف له وجها إلا أنها لغة نادرة .

وهو كثير التفريع فى الجملة، يغلو فى استعمال الفضلات، يقدّم ويؤخر فى توسعة على نفسه، توسعة قد توقع السامع أحيانا فى اضطراب، كقوله :

(١) التبريزى ج ٢ ص ٣٠٢ (٢) التبريزى ج ٢ ص ٣١١

لَم يغلِقِ اللهُ باب العُرفِ عن أَحدٍ بابُ الأميرِ له المألوفُ مفتوحُ

وسأتحدّث فى مكان آخر عن تركيب الجملة عند أبى تمام ، وكونه كان مظهرا من مظاهر حسه للجمال . وقد يفصل بين الصفة والموصوف بجار ومجرور، كقوله :

أَهْيَسُ أَلْيَسُ[1] لَجّاء إلى هِمَمٍ تُغرِّق الأُسْدَ فى آذيِّها اللِّيسا

يريد أن يقول : تغرق هذه الهممُ فى موجاتها الأُسْدَ اللِّيسَ . وقد يعيد الضمير على متأخر، فيقول فى هجاء عياش بن لهيعة الحضرمى :

وبقِيتُ لولا أننى فى طيِّئٍ علمٌ لقال الناسُ : أنت جريرُ

يا خِلقةَ اللهِ التى مِن طَرْزِها نشأَ فكان القردُ والخِنزير

وما أشبه " فكان " بأن تكون زائدة فى البيت ، فتصبح العبارة : " نشأَ القرد والخنزير " . من لغة طيئ السالفة الذكر . وغير هذا قوله :

لولا قَبُولِىَ نُصح العزم مُرتحِلا لسابقانى إليه الرَّحْلُ والجملُ

وهذا البيت صريح فى أنه من لغة طيئ .

وأبو تمام مشغوف باستعمال المثنى شغفا واضحا، يقول فى وصف بابك :

تحذّر من لِهْبَيْه يرجو غنيمة بساحةِ لا الوَانِى ولا المتخاذِلِ

ويقول :

تحملتُ مالو حُمِّل الدهرُ نصفَه لفكّر دهرًا أىُّ عِبْئَيْه أثقل

ويقول :

لو أنّ دهرا ردّ رجع جوابى أو كَفَّ من شَأْوَيْهِ طولَ عِتابى

ويقول :

أَبْقَى على جَوْلة الأيام مِن كَنَفَىْ رَضْوَى وأَسْيَرُ فى الآفاقِ مِنْ مَثَلِ

ويقول :

فما هَضْبتا رَضْوَى ولا رُكْنُ مُعْنِقٍ[2] ولا الطَّوْدُ من رُكْنٍ ولا أَنفُ يَذْبُلا[3]

بأثقلَ منه وَطْأةً حين يَغْتدِى فيُلقِى وراءَ الملك نَحْرا وكَلْكَلا

(١) الأهيس : الشجاع ، والأليس : كذلك ، وجمع الأليس : الليس .

(٢) معنق : قصر عيد بن ثعلبة بحجر اليمامة . وهو أشهر قصور اليمامة ، يقال إنه من بناء طسم ، وهو على أكمة مرتفعة .

(٣) ركن بضمتين : موضع باليمامة . ويذبل : جبل مشهور بنجد .

ويقول :

وليس امرؤٌ فى الناس كُنْتَ سَلامَهُ عشيَّةَ يَلْقى الحادثات بأعْزَلا
يَرَى دِرْعَهُ حصداءَ والسيفَ قاطعا وزُجَّيْهِ مسنونَيْن والسَّوْطَ مِغْوَلا (١)

ولقد تعمدت أن آتى بمعظم هذه الأبيات من صفحات متقاربة فى ديوانه، ليُرَى فى جلاء غرام أبى تمام باستعمال المثنى، فى غير ضرورة قاهرة .

* * *

ولم أقصد فى سرد وجوه ثقافة أبى تمام إلى أول شعره، كما أنى لم أعمد إلى متأخره، وإنما وضعت يدى على ماتهيأ لى فى شعره، حين توخيت تأريخ ثقافته، فى غير نظر إلى أزمان . إذ قد يتقدم زمن الشعر أو يتأخر ولكن المؤثر فيه واحد . وثقافة الانسان آخر عمره، ليست إلا نتاجا لما جنى فى كل سنيه . كما أن الانعكاسات الذهنية والنفسية للمؤثرات قد تتأخر زمنا طويلا، حتى يبين أثرها واضحا، وحتى تهضمها القوى، وتروضها المعالجة والممارسة . والنظر فى التاريخ العلمى لذلك العصر، يُرِى شدّة الصلة بين ما يدرسه الطالب فى مصر وما يدرسه فى غيرها حيث تسيطر عوامل متشابهة، وبيئة علمية لاتتفاوت فى الأصول والجواهر، وإن تفاوتت فى الأعراض . ولقد كانت الثقافة المعتادة لكل طالبِ علْمٍ يومئذ، هى مارأينا أبا تمام يلم به . فلا يكاد الإنسان يظن أنه دخل جامع عمرو ليدرس العلم فيه، فخرج منه ولم يحفظ القرآن، أو يعرف النحو، مع أن كل العلوم كانت ترتبط يومئذ بالقرآن . ولقد جعلت نصب عينى أوضح الإشارات وأجلها، وإلا فإن آثار نواحى هذه الثقافة بادية فى كل شعره، ما قيل منه أول أمره، وما قيل منه آخرا .

(هـ) أول شعر أبى تمام فى مصر وخصائصه :

١ ــ مدحه عياش بن لهيعة : لم يلبث أبو تمام أن قال الشعر . وأول ما قاله منه على رواية الصولى :

تَوَقِّ جَمَحاتى لستُ طَوْعَ مؤنبى وليس جَنِيبِي إن عذلْتِ بمُصْحِبِي
فلَمْ توقِدى سُخطا على متنصِّل ولم تنزلى عتبا بساحة معتب
رضيتُ الهوى والشوقَ خِدْنا وصاحبا فإن أنت لم ترضَىْ بذلك فاغْضَبى
يصرِّف حالاتِ الفراقِ مصرِّف على صعب حالاتِ الأسى ومُقلِّبى

(١) الزج : الحديدة أسفل الرمح . والدرع الحصداء : المحكمة، الضيقة الحلق . والمغول : سيف دقيق له قفا .

وفى القصيدة ميل إلى أسلوب الفن الجاهلى ، ففيها يقول :

وخُوطِيَّةٍ شمسيةٍ رشَئِية مُهفهفَة الأعلى رَدَاحِ المحقَّبِ

ومنها :

مِنَ المعطَياتِ الحسْن والمُؤْتياتِهِ مُجلْبِبةً أو فاضلا لم تَجلْبَبِ

لو آنّ أمرأ القَيْسِ بنَ حُجْر بدت له لَمَا قال مُرَّا بى على أم جُندَب

ومنها :

إذا أَمَّهُ العافون أَلفَوْا حِياضَهُ مِلاءً وألفَوا روضَهُ غير مُجدِب

وهو فى أول شعره يبوح بحاجة من خلجات نفسه ، وشعور لا أشك فى أنه كان يثقله كثيرا ، فيقول للائمته :

أحاولتِ إرشادى فعقلى مرشدى أم آستمتِ تأديبى فدهرى مؤدّبى

هما أظلما حالَىَّ ثُمَّتَ أَجْلَيا ظلامَيْهما عن وجه أمردَ أشيبِ

إن جهاد الوحيد فى مضطرب الحياة جهاد ثقيل مضن ، وخاصة إذا بدأه وغصنه رطيب ، فإن هذا الكفاح مهما ينته بالنصر ، يترك فى القلب كَلْما داميا أبدا ؛ فبسمة النصر تمزجها الذكرى بعبوس الألم ؛ وشعور صاحبهما بينهما فرح وقور شاك ، أو حزن هادئ مبتسم ؛ ولكم يطبع الكفاح الأول الحياة كلها بطابع أبدى . و إن فى أشارة أبى تمام فى عبارته هذه : "أم استمتِ تأديبى فدهرى مؤدبى" . فى إشارته هذه ، ما يلخص سيرته ، وكفاحه ، وحياته . و إنها لتذكر بالحكمة المعروفة :

من لم يؤدّبه والداه أدّبه الليل والنهار

وما أظن إلا أن أبا تمام ، يوم قال هذه العبارة ، كانت تَمْثُل له وراء كل لفظ من ألفاظها ، دنيا ساخرة مائجة ، قد حُرِم فيها المعونة من مُعين ، والحنان من رحيم . أَلَمَّ بهذا المعنى فى قصيدة ليس الغرض منها الإلمام به ، فمر به ، عجلا ، وتركه أشبه بالعَبْرة ماتكاد تسيل حتى يجففها صاحبها ، فى خفاء وعجلة ، حتى لا يلحظ الناس ما به . وأغلب ما كان التعبير عما فى النفس فى الشعر العربى من هذا القبيل . و إن أبا تمام ليستعيد جأشه فجأة ، و يطرد تلك الذكرى المؤلمة ، أو هو يخلط عبوستها ببسمة النصر ، والشعور بالفوز ، فيقول عن نفسه :

شَجًا فِي حلوقِ الحادثاتِ مشرّقٍ به عزمُه فِي الثُّرّهاتِ مُغَرّبِ

كأنّ له دينا على كل مشرق مِن الأرض أو ثأرا على كل مغرِبِ

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى ما هرب منه حين يذكر ما ضيه، فهو فى حاجة إلى معين، و إن يكن ذلك فى شيء من الكبرياء، فترى حاجته تسفر وتتوارى وتصطنع العلل :

تركتُ حُطاما منكب الدهر إذ نَوى ... زِحامىَ لمَّا أنْ جعلتُكَ منكبي
وما ضِيقُ أقطارِ البلادِ أضافنى ... إليكَ ولكن مذهبي فيك مذهبي
وأنت بمصرٍ غايتى ، وقرابتى ... بها و بنو الآباء فيها بنو أبى
ولا غَرْو أن وطّأتَ أكنافَ مرتعى ... لِمُهمَل أحْفاضِى (١) ورفَّهتَ مَشْربى
فقومت لى ما أعوجّ من قَصْد همتى ... و بيضتَ لى ما أسودّ من وجهِ مطلَبى

وفيها يقول له : إننى قصدتك مع أن بمصر قرابتى و بنى أبى من طيئ .

أما غزله فى القصيدة فيبدؤه بخطاب عاذلته، التى تعذله فى حبه، فيقول : إنه لن يطيعها، وليس يخاف سخطها، وأنما هو محب مدلّه، تخذ الهوى خِدنا وصاحبا ، وهو ذو قلب مهيأ للحب على ما به من أسى وألم . ثم يختمه بوصف جسمانى لمن أحبها، وأثر جمالها فى القلب . و يقول إن هذه حاجتى، لا ارتيادك بالأذى محلّى إلا تبكرى تتأوبى . وهو فيها لا يتحدث عن هجر، ولا نسمع كثيرا تلك النغمة الحزينة التى تغلب فى غزله عامة، والظاهر أن ذلك راجع إلى أنه كان فى مستهل أمره، ممتلئا أملا .

وفيها البيتان اللذان قال فيهما إنه و إن كان لا يزال شابا أمرد فقد لحقه الشيب . و يرى التبريزى لهما أحد معنيين : الأول أن يكون قد شاب فى حال المرد، لعظم ما لاقاه من الشدائد . والثانى أن يكون أراد أنه فتى فى السن، وهو فى العقل شيخ . وقد يكون التفسير الأخير أليق بأبى تمام يومئذ .

وأبو تمام فى هذه القصيدة معنىٌّ بالبديع ، ولكن اتجاهه إلى المعنوى منه أكثر من اتجاهه إلى اللفظى ، فهو كثيرا ما يقصد الاستعارة ، والمجاز ، والتشبيه ، من أنواع البيان . فإذا جئنا إلى ما يطلق عليه البديع فى الأزمنة المتأخرة، لم نجده يعنى باللفظى منه كثيرا، و إنما هو يعنى بالمقابلة بين معنيين متضادين فى البيت . كجمحان وطوع ، والرضا والغضب ، ومجلبب وفاضل ، وتُبكرى وتتأوبى، وأظلما وأجليا . و إن يكن فيها شيء من مراعاة الموسيقى اللفظية، وآتساق المقاطع ، وحفظ التناسب، كما فى البيت :

بمختبِلٍ ساجٍ من الطَّرْفِ أحْورٍ ... ومقتبَلٍ صافٍ من الثغرِ أشْنبِ

فكل كلمة فى الشطر الأول تقابلها نظيرتها ومثيلتها فى الشطر الثانى، بما يدل على قصد واعتماد لذلك .

(١) أحفاض : جمع حفض وهو الجمل الضعيف .

على أنها مع ذلك ليست بادية التكلف، وليست تضيق بها النفس. فأبو تمام يقصد إلى البديع في أول قصيدة من قصائده، وخاصة ما يمس المعنى منه، ولكنه لم تتهيأ له بعد سعة الخيال وخصبه. وليس في القصيدة لفظ غريب، تنفر منه النفس أو السمع.

* * *

ولقد كانت هذه القصيدة بداية طيبة، فأعطاه عياش خمسة آلاف درهم، كما ينقل البحتري عن أبي تمام. ويستطيع الإنسان أن يصوّر لنفسه، مبلغ نشوة هذا الفتى الصغير الفقير، يملك خمسة آلاف درهم. ولا نعرف ماذا أراد بها، ولكنا نعرف أنه كان كريما مسرفا، كما رأينا في الحديث عن شخصيته. فلم يلبث أن بددها، ثم عاد إلى عيّاش يمدحه. وليس في ديوان أبي تمّام، في مدح عيّاش، غير القصيدة السابقة، إلا قصيدة أخرى مطلعها:

أحْيَا حُشاشةَ قلبٍ كان مَخْلوسا ... ورمّ بالصبر عقلا كان مألوسا[1]

سَرَّى[2] رداء الهوى في حينِ جِدّته ... وَاهًا لَهُ منه مَسْرُوًّا وملبوسا

لو تشهدينى أقاسى الدمع منهمرا ... والليلَ مُرتتجَ الأبوابِ مَطْموسا

أستنبتُ القلبَ مِن لَوْعاتِه شجَرا ... مِن الهمومِ فأجْنَتها الوَساوِيسا

وهذه القصيدة من الناحية الفنية لا تأتي بعد الأولى، من حيث القيمة الفنية، ولا بد أن يكون بين الاثنتين قصائد أخرى، ذهبت فيما ذهب من شعر أبي تمام. على أن ما يبدو في غزلها من الكآبة — وأبو تمام دائم الملاءمة بين روح غزله وبين ما يضطرب في نفسه — يجعلنا نقدّر أنه كان في حاجة إلى المال.

٢ — معاتبته عيّاشا: لا تلبث العلاقة بين عيّاش وأبي تمام أن تتزعزع. ويفسر لنا صاحب العقد الفريد[3] سبب ذلك، بأن أبا تمام استسلف عيّاشا مائتي مثقال، فشاور فيه زوجته، فقالت له: "هو شاعر: يمدحك اليوم، ويهجوك غدا. فاعتلّ عليه، واعتذر إليه، ولم يقض حاجته". ويظهر أن هذا الاعتلال قد استمرّ زمنا، فأخذ أبو تمام يعاتبه، محتفظا بمعنى المدح في عتابه، شاكيا طول ما بقي ببابه؛ ففي قصيدة له أولها:

صدفتْ لُهَيّا قلبيَ المستهترِ ... فبقيتُ نَهْبَ صبابةٍ وتفكّرِ[4]

---

(١) ألس: اختلط عقله، وهو مألوس.

(٢) سرى: خلع، ومسرّ: مخلوع.

(٣) ج ١ ص ١٤٤ ط: الجمالية.

(٤) اللهيا: تصغير لهوى، من اللهو، بوزن ليل. والمستهتر بالشيء، بصيغة المفعول: المولع به، لا يبالي بما قيل فيه.

يقـــول :

الفِطر والأضحى قد آنسلخا ولى أملٌ ببابك صائمٌ لم يُفطِرِ
حَـوْلٌ ولم يُنتَج نداك وإنما تتـوقع الحُبْلَى لتسـعةِ أشهرِ
جِشْ لى بيحرٍ واحدٍ أُغرِقْكَ فى مـدح أجيش له بسبعةِ أبحـرِ

فهو يذكر فيه بقاءه ببابه حولا كاملا، مرّ فيه عيدا الفطر والأضحى، وأمله صائم لم يفطر. ولا أظن أن أبا تمام قد بقى هذا الحول فى انتظار مائتى مثقال، ولكن فى انتظار عطاء لا يعلم مقداره. فإذا أردنا أن نتعرف حال أبى تمـام النفسية، وما توالى عليه من حس، وجدناه فى هذه القصيدة فى غزله. وقد قلت إن غزل أبى تمـام تصوير لمـا فى نفسه من هم؛ وهو حين يشكو يجعل مرآته الحب :

غرض الحوادث ما تزالُ مُلِمَّةً ترميه عن شَزَنٍ بأم حبوكرِ (١)
سَـدكتْ به الأقدارُ حتى إنه لَتكادُ تفجؤه بمـا لَمْ يقـدرِ (٢)
ما كَمَّ عن حربِ الزمانِ ورميِه بالصبرِ إلا أنـه لم يُنصـرِ (٣)
ما إن يزال بحد حزمٍ مقبِـلٍ متوطئـا أعقـاب رزقٍ مدبرِ

أما عيّاش فقد بدأ يلقاه فى آمتعاض وتجهم :

فإذا جِئتُ زائرا حجبتْ وجـ ـهك عـنى كآبةٌ وبُسُـورُ (٤)
فتطلّقْ مـع العناية إن الـ ـبِشر فى أكثر الأمورِ بشـير
إنمـا البِشرُ روضـة فإذا كا ن ببـذلٍ فروضـةٌ وغـدير
وآقسِم اللحـظَ بيننا إنّ فى اللحـ ـظِ لَعنوان ما يُجِنُّ الضمير

بعد ذلك تثور نفسه لكثرة ما رجاه، ويحس ذلة السؤال جارحة أليمة فيقول :

ذُلّ السؤالِ شَجًا فى الحلقِ معترِضُ من دونِهِ شَرَق من تحتـهِ جَرَضُ
ما ماء كفّك إن جادتْ و إن بخِلتْ من ماءِ وجهى إذا أفنيتُه عِـوَضُ

وهو ينسب جفاء عيّاش له إلى قوم يسعون به عنده :

أظن عنـدك أقواما وأحسـبهم لم يأتلُوا فىّ ما أعـدَوا وما ركضوا
يرمونى بعيـونٍ حَشْوها شَـزَر نواطق عن قلوبٍ حشُوها مرَض

(١) الشزن : البعـد . وأم حبوكر : الداهية .
(٢) سدك به كفرح : لزمه، والسدك كفرح المولع بالشىء.
(٣) كم : يكع و يكع : جبن وضعف .
(٤) البسور : العبوس والتقطيب .

لولا صيانةُ عِرْضى وٱنتظار غـــدٍ والكظْم حتم على الدهرَ مفـترَض
لمـا فككتُ رِقاب الشعرِ عن فِكَرى ولا رِقابهـم إلا وهـم حُيـــضُ
أصـبحتُ يَرمِى نباهاتى بخامـلة مَن كله لنبـالى كلهـا غـــرض

وفى البيت الأخير إشارة إلى من يرميه بخاملة " ويظهر أن خاملة هذه وصف لموصوف محذوف، لأنه مفهوم، أى قصيدة خاملة" وأظنه يشير بهذا إلى شاعر هاجاه فى مصر، هو يوسف السرّاج، يذكر آبن رشيق فى عمدته، أنه أفحمه فى الهجاء[1].

٣ — هجاؤه عياشا : ثم عيـل صـبره، وٱنقطع ذلك الأمل الذى كان يمسكه عن هجائه، فهجا عياشا هجاء من قد جُرح وشعر بحـرارة جرحه، وتراه وهو يهجـو لا ينكر ما كان فيـه أيام كان يمدحه ويرجوه. فهو صريح، وهو فى حاجة إلى المـال تبين فى هجائه :

النـار والعـار والمـكروه والعطب والقتل والصَّلْب والمُرّانُ والخشبُ
أحلى وأعذب من سيب تجـود به ولن تجـــود به يا كَلْب يا كَلِبُ

وهو يأخذ على نفسه مدحه لهم، ولحاجته فى ذلك :

لَحـاجـــة بى فيـكم ليس يشبهها إلا لحاجتـكم فى أنـكم عَـــرَب
أشكيتمونى فلمـا أنْ شـكوتكمُ غضبتمُ دام ذاك السخطُ والغضب

أما هجـاؤه له، فهو أشبه بالشتائم الساذجة، منـه بالهجاء الحقيق. ويظهر أنه استنفد من الجهد فى تهديده بالهجاء، أكثر مما بذل فى هجائه حقا. وهو ينذر فى كل قصيدة بما سينكل به :

لَيسوَدنَّ بقـاعَ وجهـك مَنطق أضعافَ ما سوّدتَ وجه قصيـدى
ولَأُشهـرَنّ عليـك شُـنْع أوابدٍ يُحسَبْن أسـيافا وهن قصـائد
فيهـا لأعنـاق اللئـامِ جـــوامع تبـــقى، وأعنـاقِ الكِرام قلائـد
يُلزِمن عَرض قفـاك وسمَ خزاية لم يخـــزَها بأبى عُيينـــةَ خالـــد

وليس أبو تمّام بالذى يغضب فيستغرق الغضب كل نفسه، ولكنه يغضب فيحزن ويحس الخيبة، ويتأمل فى حاله، وما وصلت إليه، فيبكى نفسه وحظه فى ساعة يشتم غريمه. وإنك لتحس لجيعته فى آماله فى عيّاش فى قصيدته :

(١) العمدة : ج ١ ص ٦٨

فما لك بالغريب يدٌ ولكن تعاطيك الغريبَ من الغريب
فلو نُبِّئْتَ المقابر عن زهير لصرّح بالعويل وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالا على تفسير بِقراطَ الطبيب
فكيف ولم يزل للشعر ماء يَرِفّ عليه رَيحان القلوب

ويقول الجرجانى بعد هذا : فخبرنى : هل تعرف شعرا أحوج إلى تفسير بقراط، وتأويل أرسطو، من قوله :

جَهْميّة الأوصاف إلا أنهم قد لقّبوها جوهر الأشياء

وقوله :

يوم أفاض جوى ، أغاض تعزيا خاض الهوى بحرَىْ حجاه المزبد

وأى شعر أقل ماء، وأبعد من أن يرف عليه ريحان القلوب من قوله :

خَشُنتِ عليه أخت بنى الحُشَين وأنجح فيك قولُ العاذلين
ألم يقنعك فيه الهجر حتى بَكَلْتِ لقلبه هجرا بيين

فهل رأيت أغث من بكلت فى بيت نسيب ؟ ... ... ثم يمضى فى ذلك .

ومن إيضاح أحد طرفى المقارنة، كما بينه الجرجانى، نستطيع أن نعرف الآخر، لا سيما بعد أن ذكر أبو تمام عن السراج اصطناعه الغريب أولا، وتعمقه المعانى ثانيا .

ولا إخالنا نختلف فى أن هذا هو مذهب أبى تمام، ولا ينقصه إلا البديع . وكأنى بالجرجانى كان يحوم حول هذا المعنى ، الذى تنشئه فى الذهن الصلة بين مذهب السراج ، ومذهب أبى تمام، وتقوّيه نشأة أبى تمام المصرية . ذلك المعنى، هو أن أبا تمام أخذ عنه مذهبه فى الشعر، وتأثر به .

٦ ــ تأثر أبى تمام بمذهب السرّاج : كان اشتباك أبى تمام فى مصر مع السرّاج اشتباك الخصومة والمهاجاة ، طريقا من طرق انفعاله بشعره الذى يقذفه به، وداعيا إلى نظر أبى تمام فيه، نظر المتأمل ، ليرى وجوه حسنه ونواحى قبحه . فكان ذلك الشعر درسا من الدروس التى تلقاها فى مصر، أثر فيه ، ووجه شعره ، لا سيما وأن أبا تمام كان يومئذ حدثا غض الإهاب ، فى دور الإعداد والتقبل للمؤثرات ، والانطباع بها انطباعا لازمه حتى آخر أيامه .

وإن أحدنا ليتأثر بخصمه أحيانا أكثر مما يتأثر بأقرب الناس إليه . كان أبو تمام كثير العيب لغريب السراج ومعانيه، فلم يلبث أن تأثر بهما ، وأصبحا من أخص خصائص مذهبه الشعرى، كما بينت ذلك فى مكان آخر. ولست أشك بعد هذا فى أن نفس أبى تمام كانت ذات استعداد خاص لتقبل هذا المذهب، وإنما أتحدث الآن عن المؤثرات الموجهة لطبيعة فيها خصب وفيها استعداد .

* * *

وكما تستطيع أن تجد آثار عناصر ثقافة أبى تمام، التى تحدثت عنها سابقا، فى شعره المصرى تستطيع أن تجد مذهبه فى طلب المعانى والبديع ، وإلمامه بالغريب من اللفظ ، والإكثار من الاستعارة والمجاز . وفرق ما بين هذه هنا، وبينها فى العراق فرق ما بين الزمنين .

* * *

ويظهر أن هجاء أبى تمام للسراج لم يبق لنا كله؛ فليس فى ديوانه سوى ماذكرت، إلا مقطوعة كلها قذف منكر، لا يفيدنا فى موضوعنا كثيرا . إلا أن فيها بيتا يكشف لنا عن ناحية من نواحى حياة السراج هذا، وقد ذكر أبو تمام مثله فى مقطوعته السابقة . أما البيت فهو :

ما إنْ سمعتُ ولا أرانىَ سامعا حتى الممات بشاعرٍ سرّاج

ولقد استظهرت من قبل أنه مدح المطّلب بن عبد الله الخزاعى فى هذه الفترة وهجاه ؛ ولكن ليس فى ديوانه شىء من مدائحه فيه، ولا أهاجيه، إلا بيتين ذكرتهما من قبل[1] . أما خصومته مع السراج، فكانت خصومة أصحاب العمل الواحد، تقوم بينهم المنافسة، فيتنابذان . وقد حكم ابن رشيق للسراج أنه ألحم أبا تمام هجاء، وأن عظمة أبى تمام الشعرية لم تنقذه من الهزيمة أمام الشاعر المصرى فى الهجاء .

٧ — تنقلات أبى تمام فى مصر وما قال فيها من شعره : ويظهر أن أبا تمام تنقل بين أنحاء مصر ، فسمعناه يذكر رسوم دار بالإسكندرية . وأقام فيها زمنا طويلا يذكر منه خمس سنين فى قصيدة له ، قالها يصف فيها تقتير الرزق عليه بمصر؛ ولا نعلم أقالها حين أراد الخروج أو وهو خارج . وأغلب ما هناك أنه لم يمض بين قوله إياها وخروجه كثير . ومطلعها :

أصِب بُحيّا كأسِها مَقتل العذلِ تكن عوضا إن عنّفوك من النَّبل

(١) ديوان أبى تمام ص ١٨٠

وهناك قصيدة أخرى ، ليست فى ديوانه المطبوع بالقاهرة، ولكنها مذكورة فى الجزء الأول من طبعة ببروتية ومطلعها :

أاطلالَ بِنتِ العامرىّ بمَنْبِجِ غِناؤك محظورٌ على الدنِف الشجِى

و يظهر أن الأخيرة قيلت قبل الأولى من حيث الزمن . وفى القصيدة الثانية ما يبيّن أن أبا تمام أتى مصر يطلب الغنى، يقول منها :

وطال قُطونِى أرض مصرَ لحاجةٍ يقال لها أَقبِحْ بِهاتِى وأَسْمِجِ
أقلّب فى أقطارها الطرف كى أرى ولستُ براءٍ ذاك عِصمةَ مُلْتجِى
فقنّعَنِى يأسِى وأعلمُ أننِى مَقُودٌ بِحبلٍ لِلمقادِيرِ مُدمَجِ
ونحن أناس نذخرالصبر للأسى ونهتاج لِليومِ العَبوسِ المهيجِ
عهِدْنا إلى البِيضِ المآثيرِ لا تُرَى مسلّلةً إلا لِضربٍ متوّجِ
ترى الناسَ نِسناسا إذا الحربُ جرّبتْ شَباطِيٌ والأشعرِين ومذحِجِ (١)

و إن الإنسان ليستطيع أن يدرك مقدار هدوء نفس أبى تمام مع يأسه حين يسمع قوله :

فقنّعنِى يأسِى وأعلم أننِى مقُود بِحبلٍ لِلمقادِيرِ مُدمَجِ

فهذه القناعة باليأس عند خيبة الأمل، وذلك الاعتصام بالمقادير فى وجه دنيا عابسة، يقابلها عند المتنبى، يوم خرج من مصر فى مثل هذه الخيبة أو ما هو أقل، ذلك الضجيج والعجيج ، والسباب وخبط الرأس بالجدران ، والهتاف بالأرض أن تنشق ، وبالسماء أن تتساقط كِسَفا فوق رءوس المصريين ومصرهم، لأنهم لم يملكوه عليهم .

أما القصيدة الأخرى التى قالها غالبا عند خروجه من مصر فتبين عن حزن شديد، حرّك بنفسه الشوق إلى أهله و بلده، وكان قد مضى عليه يوم قالها خمس سنوات مقيما فى مصر، ومنها :

سقِى الرائحُ الغادى المهجّرُ بلدةً سَقَتْنِى أنفاسَ الصَّبابةِ والخَبْلِ
سحابٌ إذا ألقتْ على خِلْفِهِ الصَّبا بدا قالتِ الدنيا أتى قاتل المَحْلِ
إذا ما ارتدى بالبرقِ لم يزلِ الندى له تَبَعا أو يرتدى الروضُ بالبقلِ
إذا انتشرتْ أعلامُه حولَه انطوتْ بطونُ الثرى منه وشيكا على حملِ

(١) النسناس بفتح نونه الأولى وكسرها : جنس من الخلق ، ينسب أحدهم على رجل واحدة . وقالوا : هم خلق على سورة الناس ولكن خالفوهم فى أشياء، وليسوا منهم .

ترى الأرضَ تهتز ارتياحا لوقعه ... كما ارتاحتِ البِكرُ الهِدِيُّ إلى البَعْلِ[1]
فجادَ دمشقا كلَّها جودَ أهلها ... بأنفسهم عند الكريهة والبذلِ
سقاهُمُ كما أسقاهُمُ في لظى الوغى ... بِبِيضٍ صفيحِ الهندِ والسُّمُرِ الذُّبَّلِ
فلم يُبقِ في أرضِ البقاعَيْن بقعةً ... وجادَ قُرى الجَوْلانِ بالمسبِلِ الهَطْلِ
بنفسيَ أرضُ الشامِ لا أيمنَ الحِمى ... ولا أيسرَ الدَّهْنا ولا أوسطَ الرملِ

ومنها في وصف حاله، وما كان يعمل في نفسه :

أخمسةُ أحوالٍ مضتْ لمغيبِه ... وشهران بل يومانِ تُكْلِ من الثُّكلِ
توانَى وشيكُ النُّجحِ عنه ووكَّلتْ ... به عزماتَ أوقفتْهُ على رجلِ

* * *

لقد طلعتْ[2] في وجهِ مصرَ بوجهةٍ ... بلا طالعِ سعدٍ ولا طائرٍ سهلِ
وساوسُ آمالٍ ومذهبُ همةٍ ... مخيمةٌ بين المطيةِ والرَّحلِ
وسورةُ علمٍ لم تُسدَّدْ فأصبحتْ ... وما يُتَمارَى أنها سورة الجهلِ
نأيتُ فلا مالًا حويتُ ولم أُقِمْ ... فأمتعَ إذْ جُعْتُ بالمالِ والأهلِ
بخلتُ على عِرْضي بما فيه صونُهُ ... ورجاءَ اجتناءِ الجودِ من شجرِ البخلِ

ثم هو يصب جام غضبه على من قصده في مصر فلم يُنِلْه بغيته :

عصيتُ شَبَا حزمي لطاعةِ جيرةٍ ... دعتْني إلى ان أفتحَ القُفلَ بالقُفلِ
وأبسُطَ من وجهي الذي لو بذلتُه ... إلى الأرضِ من نَعلي لما نَقبتْ نعلي

ومنها :

وكانَ ورائي من صريمةِ طيئٍ ... ومعنٍ ووهبٍ عن أمامِيَ ما يُسْلي
فلم يكُ ما جرّعتُ نفسي من الأسى ... ولم يكُ ما جرّعتُ قومي من الثُّكلِ

٨ ــ ارتحاله عن مصر : نزل أبو تمام مصر طفلا لم ينفع يطلب الغنى، فوهبت له علما، وغمرت قلبه نورا، وفتحت عينيه على دنيا جديدة، وأشاعت فيه أملا واسعا، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح اليه .

(١) الهدى كغنى : العروس . (٢) الضمير في طلعت، يعود على النوق .

قذفت به إلى الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد وزودته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه، ولكنه كان ممدود اليدين، يريد أن ينال بهما جميعا ؛ فلما لم يجد بإحداهما ما طلب ، ألهاه ذلك عما باليد الأخرى، فانفتل غاضبا فى شيء من يأس الشباب ولكنه لم يكن نذلا ، فلم يخلط بين الوطن الذى آواه، وبين الرجل الذى ضن عليه .

لم يخرج أبو تمام من مصر إلا بعد أن استضاءت نفسه بذلك النور الذى يضاعف الحس بالحياة ، فيزيد من ظلمتها، كما يفجر من لألائها؛ ويجعلها مسرحا للاقتران الرائع بين عبادة الحياة والنقمة عليها؛ ويدفع إلى قوله :

أحاولتِ إرشادى فعقلي مُرشِدِى ... أم استمتِ تأديبي فدهرِى مؤدِّبِى

هما أظلما حالَىَّ ثُمَّ أجليا ... ظلامَيْهما عن وجهِ أمردَ أشيبِ

٤ — أبو تمام فى الشام

عاد أبو تمام إلى الشام من مصر شاعرا . وقد نزل الشام بعد عودته هذه من مصر عدة مرات سنتحدث عنها على حسب أزمنتها .

(١) شعره فى أبي المغيث : وفى الشام يمدح أبو تمام طائفة من الناس ، ولكن هذا المدح يجئ أيضا فى أزمنة متفرقة . وأظهر من مدحه أبو تمام فى الشام هذه المرة، هو أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى . ومدائح أبى تمام وهجاؤه فيه يفهم من ثناياها أنها قيلت فى زمنين متباعدين :

الأول منهما قبل أن يرحل أبو تمام إلى العراق، وقبل أن يلقى نجاحا كبيرا . فنسمعه فى قصيدة يقول لممدوحه أبى المغيث :

وغدًا ستَعْلَمُ كيف غِبُّ قصائِدِى ... إنْ مِلْنَ بِى هَمِمِى إلى بغدادِ

فلم تكن قد مالت همته به يوم قالها إلى بغداد بعد .

وأغلب الأمر أن أبا تمام ترك مصر إلى الشام سنة ٢٠٣ ، ليزور أهله وأحباءه ، وكان قد طال أمد افتراقه عنهم وشوقه إليهم ، كما يبدو ذلك فى قصيدته التى تحدثت عنها ، وليتحدث إلى جيرة يخيل إلىّ أنهم كانوا ذوى أثر بالغ فى حياته، يقول عنهم إنهم هم الذين دفعوه إلى نزول مصر :

عَصَيْتُ شبابا حزْمِى لِطاعةِ جِيرةٍ ... دعتْنِى إلى أن أفتح القُفْلَ بالقُفْلِ

مـــدحه : وقصيدة أبي تمام في أبي المغيث :

لَطَمَحْتَ فِي الإبـراقِ والإرعادِ وغـدا عليّ بِسـيلِ لَـوْمِك غادِ

هي واحدة القصائد ، التي يستطيع الباحث في اطمئنان أن يقطع أن أبا تمام قالها قبل رحيله إلى العراق فيه ، لقوله السابق فيها .

ولكنه يحدّثه فيها عن شعر سبق له فيه ، فيقول :

سَـلْ مُخبِراتِ الشعرِ عنّي هل بَلَتْ في قَـدْحِ نارِ المجـدِ مثـلَ زِنادِي
لَم تَبْـقَ حَلْبَـةُ منطِـقٍ إلا وقـد سَـبقتْ سوابقَها إليـكَ جِيـادِي
أبقيْنَ في أعنـاقِ جودِك جوهرا أبْقَى مِن الأطـواقِ في الأجيـادِ
وغدًا سـتعلم كيف غِبُّ مدائحي إنْ مِلْنَ بي هِممي إلى بغـدادِ

وهو يصف فيها رحلته إلى ممدوحه بما يوحي أنه قصده من مكان غير دمشق ، التي كان يقيم فيها أبو المغيث وما أظنه كان إلا مصر لقرب نزوحه عنها .

يقول ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق : "ذكره أبو الحسن الرازي في تسمية أمراء دمشق ، في خلافة بني العباس فقال : أمراء دمشق من قبل المعتصم : موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي أبو المغيث المرة الأولى ؛ ثم أبو المغيث للمرة الثانية ، بعد أن ولي بعده أبو الصالحات ، ثم دينار بن عبد الله بن أحمد بن محمد . وعزل وأعيد ، ومات المعتصم وأبو المغيث على دمشق" ومن هذا نرى أن أبا تمام مدح أبا المغيث هذه المرة قبل أن يكون أبو المغيث واليا على دمشق لأن أولى ولا يتيه عليها كانت أيام المعتصم ، والمعتصم لم يكن خليفة قبل سنة ٢١٨ هـ .

ومن قصائده التي يغلب أن يكون قالها فيه هذه المرة قصيدة مطلعها :

صَرْفُ النـوى ليس بالمكيثِ ينبِث ما ليـس بالنَّبيـثِ
هبَّتْ لأحبـابنـا ريـاحٌ غـيرُ سَـواءٍ ولا دَثُـوث

ومنها يستعجل عطاءه :

أنكِدْ بِأَرْيِ النـوالِ ما لَمْ يخْلُ مِن العُشْبِ واللَّويثِ
ما الجـودُ بالجـودِ أو تـراه ليـس بِـنَزْرٍ ولا لبيـثِ
طـال المـدى فاعتراكَ عتْبٌ مِن صـادقِ الـوُدِّ مُستريثِ

خـــذها فما نالها بنقص مـوتُ جـــرير ولا البَعيثِ
وكُنْ كريما تجِـدْ كريما فى مدحـهِ يـا أبـا المغيثِ

وثالثة يغلب فيها روح مثل هذا الروح المنبث فى السابقة وهى :

وثَنَـاياكَ إنهـا إغريـــضُ ولآلٍ تُـــؤْمٌ وبرقٌ وَمِيـضُ

ومنهـا :

أتأَرَتْنِي الأيـامُ بالنظـر الشزْ ـرِ وكانت وطرْفُها لى غَضيض
كيف يُمسِى برأسِ عَلياء مُضْحٍ وجَناح السـمو منـه مَهِيض
هِمَّـةٌ تنطـــح النجـومَ وجَدٌّ آلِفٌ للحضيضِ فهـو حضيض

ثم يختمها بآستجداء وآستعجال للعطاء ، وذكر لقصائد قالها قبلُ فى أبى المغيث :

كُنْ مآبا أبا المغيثِ فما زِلْـ ـتَ مآبا يأوى إليكَ الجريض
كلَّ يـومٍ نـوعٌ يقفيـه نوعٌ وعَرُوضٌ يتلوه فيك عَرُوضُ
وقوافٍ قد ضجَّ من طولِ ما آستُعْـ ـمِلَ فيهـا المرفـوعُ والمخفوض
المـديحُ الجزيل والشكر والصد ق ومُرُّ العتـابِ والتحْريض
وحياةُ القريضِ إحياؤك الجـو د فإن ماتَ الجودُ ماتَ القريض
كن طويلَ الندى عريضا فقدسا ر ثنائى فيك الطويلُ العريضُ

ومنهـا :

يا عجبٌ الإحسانِ فى زمنٍ أصـ ـبح فيهِ الإحسانُ وهو بغيض

وإنما دعانى إلى جعل هذه الثلاث نتاج هذه الفترة من فترتَى آتصال أبى تمام بأبى المغيث ، شيوعُ ذلك الروح من الآستجداء للمال فيها جميعا . وقد كانت هذه طَلِبته أولَ أمره معه . أما مبتغاه فى المرة الثانية فلم يكن المـال ، وإنما كان الوظيفة كما سنرى بعد ، وذلك فى زمن متأخر ، بعد أن أثرى أبو تمـام وسار صيته ، ومل كثرة الآنتقال فأخذ يتجه إلى نوع جديد من الحياة فيه آستقرار وهدوء . يقول له فى قصيدة قالها فيه سنة ٢٢٧ :

أعطِ الرياسة من يديك فلم تزَل من قبلِ أن تُدعَى الرئيسَ رئيسا

فهو يريد رياسة . وهذه الإشارة إلى رياسة أبى المغيث : "فلم تزل من قبل أن تدعى الرئيس رئيسا" إنما هى إلى الفترة الأولى التى سبق الحديث عنها ، ولم يكن فيها أبو المغيث قد ولى بعد أمر دمشق . أما كيف عرفت أن هذه السينية قيلت سنة ٢٢٧ ، فذلك ما سأتحدث عنه فى حينه .

عتابه : لم يلبث أن ثار بين أبي تمام وأبي المغيث ماثار من قبل بينه وبين عيّاش بن لهيعة الحضرمي في مصر . فقد كان أبو تمام شديد الطمع ، واسع الآمال ، كثير الطلب للمال ، مما قد لا تتسع له يد رجل كأبي المغيث .

رحلته عن الشام : وكان كما رأينا كثير الإلحاح في قصائده بالطلب ، يتبع القصيدة بالقصيدة ، فأعطاه أبو المغيث حتى إذا زاد طلبه ، قصر في شأنه ، فأخذت مدائحه فيه تأخذ نغمة من المنّ عليه بها ، والإنذار بأنه سيتركه إلى بغداد . ولكن ذلك لم يخلق في أبي المغيث القدرة على إرضاء مطامع أبي تمام ، فاغتاظ ورحل عنه آخذا في عتابه . ولم أسمه عتابا إلا لأنه موضوع في باب العتاب في الديوان ، أما هو فهجاء مقذع ملىء بالحقد :

وإني لأستحيي يقيني أن يُرى ... لشكّي في شيء عليه دليل
وما زال لي علمٌ إذا ما نصصتُه ... كثيرٌ بأنّ الظرف فيك قليل
وإن يكُ عدّي عن سواك إليك بي ... رحيلٌ فلي في الأرض عنك رحيل
أبى الحزمُ لي مُكثا بدارٍ مُضيعةٍ ... وعيسٌ أبوها شذقمٌ وجديل
أبعد التي ما بعدها مُتلوّمٌ ... عليك لحُرٍّ قلتَ أنت عجول
سأقطع أرسان العتاب بمنطقٍ ... قصيرٍ، عناءُ الفكرِ فيه طويل
وإن امرءا ضنّتْ يداه على امرئٍ ... بنيلِ يدٍ من غيرِه لبخيل

ومن الأبيات يظهر كيف رحل عنه أبو تمام غاضبا ساخطا ، فخاف موسى هجاءه ، فأرسل إليه يسترضيه ، أو قال عنه : إنه تعجل الرحيل قبل أن يمكننا من إعطائه حاجته . فيرد عليه أبو تمام بقوله : أبعد كل هذا التمكث والانتظار ، تقول إنني تعجلت ؟ لقد أبى لي البقاء عند من يضيعني حزمي ، والعيس الأصيلة التي تحملني إلى حيث أجد رزقي . وهو يتهمه بقلة الظرف ويقول له إن محاولتك حبسي عن الرحيل إلى غيرك من الأجواد ، بخل يضاف إلى بخلك .

وكان هذا بدء الهجاء . وما حال بينه وبين الإفحاش فيه إلا قربه من صاحبه ، وخوفه بطشه ، حتى إذا أبعد عنه أخذ في هجائه ؛ فلم يجد بدا من أن يكذب نفسه في مدحه له :

عجبا لقومٍ يسمعون مدائحي ... لك لم يقولوا : قُمْ فأنت مصابُ
نَسبوا بكذابٍ مُسيلمةَ فقد ... وَهموا وجاروا ، بل أنا الكذاب
وهتكت ديني فاستترتُ بتوبةٍ ... فأنا المقرُّ بذنبه التوّاب

وفيها ما يدل على أنه كان حجبه عنه :

هَبْ مَنْ له شيءٌ يريد حِجابه ... ما بالُ لا شيءٍ عليه حِجابُ
ما إنْ سمعتُ ولا أرانى سامعا ... أبدا بصحراءٍ عليها باب

وهو فى قصيدة أخرى يتحدّث عن هذا الحجاب :

لا تُدهشنِّى بالحجابِ فإننى ... نَدْسُ البديهةِ عارفٌ بمُوارِبى[1]
لا تَكْلفنَّ وأرضُ وجهِك صخرةٌ ... فى غيرِ منفعةٍ مؤونةَ حاجبِ

ذهب عنه أبو تمام يضرب فى الأرض يشتمه ويهجوه . فأراد أن يحتال فى إرجاعه ، فلم يرجع كما رأينا من قبل، ولمّا هجاه صرّح بتهديده بالموت، فرد أبو تمام على ذلك أقبح ردّ .

وله فى هجائه قطعة يصدق حين يصف نفسه فيها بخفة الروح :

حلَقَ اللهُ لحيةً لك لو تُحْ ... لَق لَم يُذر مَا غلاء المَسُوح
وذَرَاها فى الريح إنْ كنتَ ترجو ... سيرَ شِعرى فى نعتِها بالريح

ولقد أقام أبو تمام عنده شهورا يقول :

ما خلّفتْ حواء أحمقَ لحيةً ... مِن سائلٍ يرجو الغِنى مِن سائلِ
ذاك الذى أحصى الشهورَ وعدّها ... طمعا لِيُنتِجَ سَقْبةً مِن حائل

ويظهر أن خيبة الأمل العريض، هى التى كانت تدفع بأبى تمام إلى هذا الغضب ، الذى كان يزلزل بنفسه فيدفعه إلى سب نفسه فى هجائه . فقد كان فى سنّ يتحرق معها إلى تحقيق مطامعه ، وكان ثقل وقع الخيبة عليه عظيما . وإنّ حسه بذلك ليبدو واضحا فى استهلال هجاءٍ له فى أبى المغيث :

أَنضيتُ فى هذا الأنامِ تجارِبى ... وبلوتُهم بتصفّحاتِ مذاهبِى
وذمَلتُ فى الأيامِ حتى أَسحتْ ... شطَّى سنامِى وانتحتْ فى غارِبِى
متجشما سُبُل المطامع طالبا ... منها وفيها شأوَ رِزقٍ هارِبِ
أمرانِ مِن خيرٍ وشر فاعلموا ... طَوْقانِ فى عُنقِ القضاء الغالبِ

وفيها يضع دستوره الخلقى فى هجائه، ومدحه، وصلاته بالناس؛ وبه يلخص سيرة الحياة فى عصره :

لِيَنَلْ عدوٌّ مِن عدوٍّ إنما ... يعفو ويصفح صاحبٌ عن صاحبِ

(١) الندس : الفهم كالندس كعضد . والموارية : المداهاة والمخاتلة .

مميزات فنه فى هذا العهد : كانت هذه خاتمة طور من أطوار حياة أبى تمام ؛ بدأ بعده طـورٌ جديد فى العراق . ولقـد رأيناه من قبل ينتوى الذهاب إليهـا ، آملا الحظوة بتحقيق آماله ومطامعـه .

وهـذا الطور الذى ختمناه يمتاز فيـه شعره عن سابق شعره فى مصر، بتهذيب ناشئ عن طول الممارسة . كما أنّ فيه وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وهو ما تخلو منه قصائده المصرية . وتجد فيه كل عناصر ثقافته ، التى أشرت إليها من قبل . إلا أنها هنا أخذت تتضح وتتبين ، تبعا لمطاوعة الشعر له بكثرة معالجته فتجد فى قصيدته :

لَطمحْتَ فى الإبراقِ والأرعادِ وغـدا على بسيلِ لَوْمِـك غادِ

أثر التاريخ والأخبار :

كم وقعةٍ لِى فى الهوى مشهورةٍ ما كنتُ فيهـا الحارثَ بن عُبادِ

وترى أثر القرآن و إن كان خفيفا، فلم يكن أبو تمام قد وجد بعد الشجاعة الكافية لاستغلاله :

عذنا بموسى من زمانٍ أنشرتْ سطواتُهُ فِرعونَ ذا الأوتادِ

ومنهـا :

لاتُنكِرى ان يشتكى ثِقَلَ الهوى بدنى فمـا أنا من بقيـةِ عاد

ومنهـا :

ما للخطـوبِ طغتْ علىّ كأنمـا جِهات بأنّ ندالك بالمرصادِ

ويتضح أثر الغريب فى قصيدته :

صَرْفُ النـوى ليس بالمكيثِ ينـبِثُ ما ليـس بالنبيـثِ

ولكنه الغريب، الرائق فى السمع، الموسيق الرنين .

٥ — أبو تمـام على أطراف العراق

(١) مع محمد بن حسان الضبى فى الرقّة البيضاء : يقول أبو تمام فى قصيدة من قصائده فى ابن حسان هذا :

لولا ابنُ حسّانَ المرجّى لم يكن بالرقـةِ البيضـاءِ لى متـلومُ

يقول ياقوت فى الرقة : " بفتح أوّله وثانيه وتشديده ... ... مدينة على الفرات بينها و بين حران ثلاثة أيام . معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى ... و يقال لها الرقة البيضاء" .

ولم يكن أبو تمام قد ذهب حتى أيام مدائحه فى آبن حسان إلى بغداد فيقول له من قصيدة :

بالشامِ أهلى، و بغدادُ الهوى، وأنا ... بالرَّقتَيْن، و بالفُسطاطِ إخوانى
ولا أظن النوى ترضَى بما صنعتْ ... حتى تشافِهَ بى أقصى خُراسانِ
خلَّفتُ بالأفقِ الغربىّ لى سكنًا ... قد كان عيشى به حلوا بحلوانِ

وفى الديوان بالرقتين والصحيح ماذكرته . يقول ياقوت . "والرقتان الرقة والرافقة" . ويقول فى مكان آخر، "الرافقة بلد متصل البناء بالرقة، وهما على ضفة الفرات، وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع".

والقصيدة تمثل حالة أبى تمام بعد تركه الشام . فهو مفرق النفس بين تلك البلاد التى نزلها جميعا . يذكر أهله بالشام، ويحن الى إخوانه بالفسطاط، ويتحرق على عيش كان حلوا بحلوان . ولأول مرة نستطيع أن نقول عن أبى تمام إنه كان يومئذ قد تزوج، وإن زواجه هذا كان فى مصر فقد سمعناه من قبل يتحدث عن رسم دار بالاسكندرية وهو الآن يقول :

خَلَّفتُ بالأفقِ الغربىّ لى سكنًا ... قد كان عيشى به حُلوا بحُلوانِ
غُصنٌ من البانِ مهتزٌّ على قمرٍ ... يهتز مثل آهتزازِ الغصنِ بالبانِ
أفنيتُ من بعدِهِ فيضَ الدموعِ كما ... أفنيتُ فى هجرِهِ صبرى وسُلوانِى
وليس يعرِفُ كُنهَ الوصلِ صاحبُهُ ... حتى يُعادَى بنايٍ أو بهِجْرانِ

(ب) طابع شعره : ونغمة شعره حزينة، تحمل أثرا من تكرار فشله الماضى، وهذا الشوق الجديد، الصادر عن فراق من نوع جديد . وكان لا زال يقاسى شيئا من حرب الأيام وما لقى فى أول أمره، ولكنه يروض نفسه فيها على هذا الفراق، تحقيقا لأمانيه :

ما اليومُ أولُ توديعي ولا الثانِى ... البينُ أكثرَ من شوقى وأحزانى
دَعِ الفراقَ فإنّ الدهرَ ساعَدَهُ ... فصار أملكَ من رُوحى لجُثمانى
خَليفةُ الخِضرِ من يربعْ على وطنٍ ... فى بلدةٍ فظهورُ العِيسِ أوطانِى

وهو كثير ذكر النوى فى قصائده فيه . ولما نزل عنده كان شديد الأمل :

يامَنْ به بدُنَت مِن بعد ما هزُلتْ ... مِنِّى المُنَى وأرتنِى وجه خُسْرانِى
كن لى مجيرا مِن الأيام إنّ لها ... يدا تفحص عن سِرّى وإعلانِى

ويظهر أنه حقق آماله :

شافهتُ أسبابَ الغِنى بمحمدٍ ... حتى ظَننتُ بأنها تتكلّمُ

* * *

لَمْ يَنْأَ عنى مَطْلَبٌ ومحمدٌ عَوْنٌ عليه أَو إليه سُلَّمُ

وهو من القليلين الذين آتصل بهم أبو تمام فلم يهجهم ولم يعاتبهم. ولكن هذا النجاح معه قد أدخل على نفس أبي تمام الطمأنينة شيئا ، ووسع الدنيا فى وجهه ، فآستشرف إلى مدح من هو أكبر شأنا من محمد بن حسان . وما نعرف عن آبن حسان شيئا ، إلا أنه كان كبير ضبة فى هذه الناحية .

والرقة البيضاء التى كان يقيم بها آبن حسان ، على أطراف الجزيرة من العراق ، أقرب ما تكون من الشام ، لا تكاد المسافة بينها و بين حلب تزيد على المسافة بين دمشق وحمص . فاذا كنت فيها فأنت فى الجزيرة بين دجلة والفرات . و إلى الشرق من الجزيرة بعد عبور دجلة آذربيجان ، فقومس ، فخراسان . والى جنوب الرقة بشرق ، العراق ، وفيه بغداد حاضرة الخلافة . وكان أبو تمام يتطلع إليها ولكنه — كما يظهر — يتهيبها و إنْ جاذبته نفسه إليها .

وكان العراق من بعد مقتل الأمين فى ثورات ودماء ، وكان المأمون قد ولى أمره الحسن بن سهل ، ليخضعه لسلطانه ، وكان فى الحركة القائمة ضد المأمون غلبة للعلوية ، وقد تحدثت عن ذلك قبلا . فأراد المأمون إرضاءهم بآختيار ولىّ عهده من العلويين ، فلم تلبث أن شبت الثورة ببغداد ، وآختير ابراهيم بن المهدى خليفة ، بعد أن خلع المأمون .

ولكن الهدوء أخذ يعود الى الناس شيئا ، منذ تحرُّك المأمون من مَرْو الى خراسان . وقُتِل الفضل بن سهل فى الطريق سنة ٢٠٢ ، ومات الرضا سنة ٢٠٣ ، فخلع البغداديون ابراهيم بن المهدى بقيادة أنصار المأمون سنة ٢٠٣

وكان القائم بالأمر فى العراق بالنيابة عن المأمون ، الحسن بن سهل ، أخا الفضل المقتول . ولأبى تمام فى الحسن بن سهل فى ديوانه قصيدتان ، يقول فى إحداهما :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأتبعُها إلى المشيبِ فَلَمْ تظلِم ولم تَحُبِ

وقد غلبت السوداء على الحسن بن سهل فى هذه السنة (٢٠٣) ، حزنا على أخيه الفضل . ويقول آبن خلكان : إنها منعته التصرف ، ويقول آبن الأثير : إنه وضع فى الحديد وجعل على عسكره دينار بن عبدالله ، مما يرجح أن أبا تمام قد مدحه قبل هذا الجنون ، أى فى سنة ٢٠٣ أو قبلها .

ولكن هذا يتناقض مع قوله : ست وعشرون ... البيت. إذا كان مولودا سنة ١٨٨ ، إذ تكون سنه يومئذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة على الأكثر . و إذ كنت الآن أؤرخ حياة أبي تمـام ، على أنه ولد سـنة ١٨٨ لأنها كما قلت الرأى السائد . فلا محيص من ترك هذا الرأى ، لمـا اشتملت عليه القصيدة من نص صريح .

* * *

لا نعرف بعد هذا إن كان أبو تمـام قد تجاوز الرقّة البيضاء الى العراق، أو لم يتجاوزها، ولكنى أرجح أنه سار الى العراق، لمـا كان يبدو من ميله إلى الذهاب إليه حين كان بالرقة، وأندرج فى غمار الناس فيه، وقال قصيدته فى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٢٠٥ فى العراق، متأثرا بالعوامل التى تحدّثت عنها قبلا، ممـا قوى الميل إلى العلويين .

٦ — فـــترة غامضـــة

احتمال اشتغال أبي تمـام فيها بالتأليف — ومن هنا الى سنة ٢١١ لا نكاد نعرف ، على وجه التحقيق، شـيئا عن أبي تمـام . ولكنى أستظهر أن أبا تمـام قد قضى هـذه الفترة، متنقلا بين العراق وخراسان والشام ، يحاول أن يؤسس سمعته ومجـده فى تلك الأنحاء المختلفة . وأغلب ظنى أنه جمع مختاراته الكثيرة فى تلك الفترة من حياته .

يقول ابن النديم : " أبو تمام حبيب بن أوس الطائى وله من الكتب : (١) كتاب الحماسة . (٢) كتاب الاختيارات من شعر الشعراء . (٣) كتاب الاختيار من أشعار القبائل . (٤) كتاب الفحول . وأشهرها جميعا كتاب الحماسة " .

و يقول الآمدى الحسن بن بشر، صاحب الموازنة، ما يزيدنا إيضاحا وذلك فى الكلام على سرقات أبي تمـام : كان أبو تمام مشتهرا بالشعر، مشغوفا به ، مشغولا مدة عمره بتخيّره ودراسته، وله كتب واختيارات فيه مشهورة معروفة فمنها : (١) "الاختيار القبائلى الأكبر"، اختار فيه من كل قصيدة، وقد مر على يدى هـذا الاختيار؛ ومنها : (٢) اختيار ترجمته " القبائلى " . اختار فيـه قطعا من محاسن أشـعار القبائل، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين؛ ومنهـا : (٣) الاختيار الذى تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام، وأخذ من كل قصيدة شيئا، حتى انتهى إلى إبراهيم بن هَرْمة، وهو اختيار مشهور معروف "باختيار شعراء الفحول"؛ ومنها : (٤) اختيار تلقط فيه أشياء من الشعراء المقلين، والشعراء المغمورين غير المشهورين، و بوّبه أبوابا ، وصدّره بمـا قيل فى الشجاعة . وهو

أشهر آختياراته، وأكثرها فى أيدى الناس، ويلقب "بالحماسة"، ومنها: (٥) "آختيار المقطعات" وهو مبوّب على ترتيب الحماسة، إلا أنه يذكر فيـه أشعار المشهورين وغيرهم، القدماء والمتأخرين، وصدّره بذكر الغزل. وقد قرأت هـذا الاختيار، وتلقطت منه نتفا وأبياتا كثيرة، وليس بمشهور شهرة غيره، ومنها: (٦) آختيار مجرّد، فى أشعار المحدثين، وهو موجود فى أيدى الناس ....

* * *

وهـذه الآختيارات جميعا، تدل على آتجاه خاص إلى التأليف، ولا يكفى فيهـا أن نقول مع القائلين: إنه إنما كان مشغوفا بجمعها للاستفادة مما بها فى شعره. ولو أراد ذلك وحده لقرأها فيما بينه وبين نفسه ولم يجعلها تحت أعين النـاس، يقارنون بين ما فيها وبين ما فى شعره من معان. فليس الغرض ما أراد خصوم أبى تمام أن يفهموه لنا، وما كان ذلك من أبى تمام إلا آتجاها إلى التصنيف، على وجه من الوجوه، لسبب من الأسباب؛ قد يكون آضطراره الى العيش من هذه السبيل، لمّا لم يستمع النـاس لشعره، فى تلك الفترة من حياته. فكان حديث النزول بالعراق، فى وسط يعج بالشعراء عجيجا، منهم من غلب على ميدانه بمـا له من حق السبق إلى حلبته، وكان أبو تمـام يحمل مذهبا جديدا، يمزج فيه بين طلب اللفظ، وطلب المعنى، والإغراب حينا، والتغميض حينا، فشغل الناس عنه أوّل الأمر، حتى تهيأت نفوسهم بعدُ إلى قبول شعره. قد يكون هذا، وقد يكون غيره، وكل ما يمكن أن يقال: هو أن هذه الفترة من حياة أبى تمام غامضة.

(ب) شعره فى آل عبد الكريم: يقول صاحب مادة أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية "إن أبا تمـام أنتقل من دمشق إلى حمص، ليبدأ مهمته كشاعر، بتأليف أهاج فى آل عتبة بن أبى عاصم، منتصرا لحماته بنى عبد الكريم. ثم رحل إلى مصر، حيث كان يكسب قوته أول الأمر ببيع المـاء فى الجامع الكبير".

فهو يجعل إتيانه مصر بعد قوله الشعر فى حمص. وهذا ما يكذبه نص الصولى، الذى ذكرته فى أوّل شعر قاله أبو تمـام، وما رأينا من أنه نزل مصر صغيرا. كما أن فى شعر أبى تمام فى عتبه، ما يدل على أنه قاله بعـد أن نزل المشرق والحجاز. ولم يذهب أبو تمام الى المشرق والحجاز إلا بعـد خروجه من مصر. يقول أبو تمام فى هجاء عتبة هذا:

وقصائدٌ تسـرى إليـك كأنها جِنٌّ تَهافَتُ أو همـومٌ تَطْرُقُ

مِن مُنهضاتِك مُقعداتِك خائفاً مُستَوهِلاً حتى كأنك تُطْلَقُ[1]
مِن شاعرٍ وقَفَ الكلامُ ببابِهِ وأكنَّ في كَنَفَيْ ذُراه المنطِقُ
قد ثقَّفتْ منه الشآم، وسهَّلتْ منه الحجازُ، ورقَّقته المشرقُ

فهو يذكر فيها أثر الحجاز والمشرق عليه . وإن لم يذكر مصر فليس معنى ذلك أنه لم يكن قد أتى إلى مصر . وأغلب ظني أن اشتباك أبي تمام مع عتبة هذا في حمص ، كان في هذه الفترة من حياته . فعندنا قصته مع ابن المعذل أو في البصرة التي أشرت اليها قبلا ، وهي تفيد أنه كان في البصرة ، كما استنتجت منها، حوالى سنة ٢٠٧ لأول نزوله بها . وفي ديوانه شعر يصف فيه حجة له :

لَعَلَّك ذاكرُ الطللِ القديم ومُوفٍ بالعهودِ على الرسومِ

وفي هذا الشعر يقول أبو تمام، مخاطبا راحلته وراحلة رفيقه وممدوحه :

فمالكِ تشتكين وأنتِ تحتي وتحت محمدٍ بدرِ النجومِ
متى أظمتكِ هاجرةٌ فشيمي أنا مِلَه تُروِّكِ بالنسيمِ
وإنْ غَشيتْكِ ظلماءٌ بخلِّي بِغُرَّتِهِ دُجى الليلِ البهيمِ
فمرَّتْ مثلَ ما يمشي شهيدٌ سَوِيًّا في صِراطٍ مستقيمِ

فهو يذكر في أبياته ، ممدوحا من ممدوحيه ، اسمه محمد . ومن ممدوحيه الذين حجوا محمد بن يوسف الثغري أبو سعيد . ولكن خروج أبي سعيد الى هذه الحجة ، إنما كان بعد عمورية، كما يقول ذلك راوي ديوان أبي تمام (النسخة المستحضرة حديثا من الاسكوريال) ، وقد قال أبو تمّام في ذلك قصيدة مطلعها :

مالي بِعادِيةِ الأيامِ من قِبَلِ لم يَثْنِ كيدُ النوى كيدي ولا حِيلي

وفيها ما يدل على أنه لم يرحل معه الى الحجاز هذه المرة :

مَن كان حَلْيُ الأماني قبلَ ظَعْنتِه أصبحتُ مذْ صارَ ذا أمنيّةٍ عُطُلِ

الأبيات . فلم يرحل معه هذه المرة ، وقد يكون رحل معه غيرها .

وعلى كل حال، ليس أمامنا ما يمكن معه القطع بأن أبا تمام قال هذا الشعر قبل شعره في عتبة، كما أنه ليس أمامنا ما يقطع بأن اشتباكه مع عتبة ، ومدحه آل عبد الكريم ، (وهم طائيون) كان في هذه الفترة . وكل ما هنالك ظنون تستند على أن عتبة بن أبي عاصم شاعر من المجاهيل

(١) طلقت كغنى على البناء للمجهول في المخاض طلقا : أصابها وجع الولادة . ومستوهلا أي فزعا . المحيط

المغمورين ، مما يجعل مثل أبي تمام يستنكف أن يهاجيه فى عصر متأخر من حياته ؛ بعد أن اشتهر أمره وذاع صيته . كما أن آل عبد الكريم هؤلاء ، ليسوا من الشهرة فى التاريخ بحيث نضعهم فى صف من اتصل بهم أبو تمام بعد سنة ٢١٤ ، من كبار رجال الدولة الإسلامية وقوادها .

هذه مرجّحات تجعلنى أضع مدح أبى تمام لبنى عبد الكريم فى هذه الفترة . وبسببهم اشتبك مع عتبة بن أبى عاصم الشاعر الذى كان يهجوهم . وبذلك يكون أبو تمام قد زار الحجاز فى هذه الفترة ، وليس يبعد أن يكون أدى إذ ذاك فريضة الحج ، وأن شعره هذا فيها .

* * *

وهو يصرح فى قصيدة له فيهم مطلعها :

يادارُ دارَ عليكِ إرهامُ النَّدى (١) وآهتزّ روضُكِ فى الثرى فترأدا
وكُسيتِ مِن حُلَلِ الحيا مستأسِدا أُنُفا يغادِر وحشَهُ مُستأسِدا

يصرح فيها أنه قصدهم من دمشق :

يا صاحِبِي بِدمشق لست بصاحبي ما لَمْ تُمَهِّدْ لِلهمُوم ممهَّدا
أَدْنِ المعبَّدة السِّنادَ وأنِّها بالسير ما دام الطريق مُعبَّدا (٢)
وإلى بنى عبدِ الكريم تواهقت رَتَكَ النعامِ رأَى الظلام نفوّدا (٣)

وممدوحه من طيٍّ :

لا تعدَمنّكَ طيٌّ فلقلَّما عدِمتْ عشيرتُك الجواد السيِّدا

وقد هجاهم عتبة ، فيقول له أبو تمام :

بنو عبدِ الكريم نجومُ لَيْلٍ تُرَى فى طيِّئٍ أبدا تَلُوحُ
فلا حَسَبٌ صحيح أنت فيهم فتكثُرَهم ولا عقلٌ صحيح
إذا كان الهجاء لهم ثوابا فأخبِرنى لِمن خُلِق المديح

وكان عتبة رجلا كبير السنّ :

وما وفَدَ المشيبُ عليك إلا بأخلاقِ الدناءةِ والضراعه

---

(١) أرهمت السماء : أتت بالرهام بكسر الراء وهو المطر الضعيف الدائم . والإرهام : المصدر من أرهم . وترأد : آهتز نعمة كارتأد .
(٢) السناد بالكسر : الناقة القوية .
(٣) تواهقت الركاب : تسايرت . ورتك البعير : مقاربته خطوه . وخوّد : أسرع فى سيره .

شاعرا ينتسب إلى كاب :

دَعْواكَ فى كَلْبٍ أعمٌّ فضيحةً وأخسُّ أم دعواك فى الشعراءِ؟

ويقول عنه فى أخرى :

نُبِّئْتُ عُتْبةُ شاعرُ الغوغاءِ قد ضجَّ منْ عَودى ومن إبْدائى

وقد هجاه عتبة أول الأمر :

أُنبِئتُ عتبةُ يعوى كى أُشاتِمَه الله اكبر أنَّى أستاسدَ النَّقَدُ[1]

ما كنتُ أحسب أنَّ الدهر يُمهِلنى حتى أَرَى أَحدا يهجوهُ لا أَحَدُ

مدفوعا إلى هجائه وهجاء قومه بآخرين ربما كانوا كلبا :

دَعْ معشرى لا معشرٌ لَكَ إنَّنى مِن خَلْفِهم وأَمامِهم لَكَ مُوبِقُ

كم نادمتْ أسيافُنا أَرماحَهم بين الجيوشِ على دمٍ يترقرق

عُمْىٌ حَدَوْكَ إلىّ أىَّ عجيبةٍ أَعمى دليلُ هُدًى وأَخْرسُ يَنْطِق

٧ — عود أبى تمام إلى مصر

فى سنة ٢١٠ ، كما يقول الكندى فى الولاة والقضاة ، أقبل عبد الله بن طاهر إلى الشام ، فظفر بنصر بن شبث ، وكان خارجا على الخلافة . وأقبل سائرا نحو مصر ، ليخضع عبيد الله بن السرى ، الذى كان يليها على غير رغبة المأمون . وقد حاربه عبد الله وقهره ، وأنزله على أمان ، ثم أرسله إلى بغداد ، وذلك فى سنة ٢١١ ، فقال أبو تمام فى ذلك شعرا منه :

لَعَمْرِى لقد كانت بمصرَ وقِيعةٌ أَقامتْ على قَصْدِ الهُدَى كلَّ مائلِ

ولسنا نعرف إن كان أبو تمام قد اتصل بعبد الله قبل ذلك فى العراق ، أو عند نزوله الشام ، أو أنه ورد مصر وأبو تمام فيها ، أو وردها أبو تمام عليه .

وفى يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤ قتل أهل الحوف الثائرون من اليمانية والقيسية ، عُمَير بن الوليد ، والى مصر من قبل المأمون . فقال أبو تمام يرثيه :

فيا يومَ الثُّلاثا كَمْ كئيبٍ رماه الحزنُ فيك وكم عَميدِ

(١) النقد : بالتحريك جنس من الغنم قبيح الشكل .

ومنها :

حضرتُ فِناءَ بابِك فآعترانى شجىً بين المخنَّقِ والوريد

وفى سنة ٢١٤ هزم هؤلاء الثوار من القيسية واليمانية عيسى بن يزيد الجَلُودى ، بالنويرة فى مصر ، فقال أبو تمام يهجو الجَلُودى فى شعر ذكرت منه قبلُ شيئا .

٨ — فى العراق

وفى هذه السنة نفسها يترك أبو تمام مصر مرتحلا عنها الى العراق ، حيث يبتدئ أزهر أيامه ، وأخصبها ، وأذخرها بالإنتاج والحياة والشعر .

تفصيل مقتل محمد بن حُمَيد الطوسى ، ورثاء أبى تمام له : فى هذه السنة يقول أبو تمام قصيدته :

كذا فَليجِلَّ الخطبُ وليقدحِ الأَمرُ فليس لِعينٍ لم يفِضْ ماؤها عُذرُ

فى رثاء محمد بن حميد الطائى ، وكان فى حرب بابَك الخرمى فقتل . ولإدراك الصلة بين شعر أبى تمام وبين ما كان فى قتل محمد أنقل ما كتبه ابن الأثير ، قال عن ابن حُميد :

" فسلك المضايق إلى بابَك ، وكان كلما جاوز مَضيقا أو عقبة ، ترك عليه مَن يحفظه من أصحابه إلى أن نزل "بهشتادسر" وحفر خندقا ، وشاور فى دخول بلد بابك ، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكروه له ؛ فقبل رأيهم ، وعبأ أصحابه ، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائى المعروف بأبى سعيد ، وعلى الميمنة السعدى بن أصرم (ويقول عنه اليعقوبى المهدى بن أصرم ، وأظن أن فى عبارة ابن الأثير تصحيفا ، إذ هو فى ديوان أبى تمام أيضاً مهدى بن أصرم) وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليقطينى ، ووقف محمد بن حُميد خلفهم فى جماعة ينظر اليهم ، ويأمرهم بسدّ خلل إن رآه . فكان بابك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة . فلما تقدّم أصحاب محمد ، وصعدوا فى الجبل مقدار ثلاثة فراسخ ، خرج عليهم الكمناء ، وانحدر بابك اليهم فيمن معه ، وانهزم الناس ، فأمرهم أبو سعيد ومحمد بن حُميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم " .

يقول ابن الأثير " وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد ، وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى جماعة وقتالا ، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين رآه الخرمية

قصدوه، لما رأوا من حسن هيئته . فقاتلهم وقاتلوه، وضربوا فرسه بمزارق، فسقط الى الأرض وأكبوا على محمد بن حُميد فقتلوه . وكان محمد ممدوحا جوادا فرثاه الشعراء وأكثروا، منهم الطائى . فلما وصل خبره الى المأمون عظم ذلك عنده[1] " .

قصة هذا البطل، قد ألهمت أبا تمام شعرا من أجمل الشعر، وهزت نفسه بقصائد من خير ما فى ديوانه . يقول البديعى : إن أبا تمام لما بلغه خبر قتله، غمس طرف ردائه فى مداد ثم ضرب به كتفيه وصدره، وأنشد القصيدة التى تمنى أبودلف لو كان هو المقتول وقيلت فيه :

كذا فَلْيجِلَّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ ... فليس لِعَينٍ لم يفِضْ ماؤها عُذر
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعدَ محمدٍ ... وأصبحَ فى شُغْلٍ عن السفرِ السَّفْر

ومنها :

فتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ ... دمًا ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذكر
فتًى دهرِه شَطْرانِ فيما ينوبُهُ ... ففى بأسِهِ شطرٌ وفى جودِهِ شطر
فتًى مات بين الطعنِ والضربِ ميتةً ... تقومُ مقامَ النصرِ إن فاته النصر
وما مات حتى مات مَضْربُ سيفِهِ ... من الضربِ وآعتلتْ عليه القَنا السُّمْر
وقد كان فوتُ الموتِ سهلا فردَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعر
ونفسٌ تَعافُ العارَ حتى كأنه ... هو الكفرُ يومَ الرَّوعِ أو دونَهُ الكُفر
فأثبت فى مُستنقعِ الموتِ رِجلَهُ ... وقال لها : من تحتِ أخمصِكِ الحشْر
غدا غُدْوةً والحمدُ نسجُ ردائهِ ... فلم ينصرِفْ إلا وأكفانُه الأجر
تردى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما دَجَى ... لها الليلُ إلا وهى من سُنْدُسٍ خُضْر
كأنَّ بنى نَبهانَ يومَ وفاتهِ ... نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدر
يُعزَّون عن ثاوٍ تُعزَّى به العلا ... ويبكى عليه البأسُ والجود والشعر
وأنّى لهم صبرٌ عليه وقد مضَى ... إلى الموتِ حتى آستُشهِدا : هو والصبر
فتًى كان عذبَ الروحِ لا من غَضاضةٍ ... ولكنَّ كِبْرًا أنْ يقالَ به كِبْر

وهكذا يسير فى القصيدة حتى ينتهى . وأهم ما فيها هو فنه فى تصوير ما وقع ، فان الصلة بين حديث آبن الأثير المؤرخ، وقصيدة أبى تمام الشاعر، ترى أن كل بيت من أبيات أبى تمام قد آستند إلى أصل فى التاريخ .

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير، ج ٦ حوادث سنة ٢١٤ هـ .

* * *

كان بابك خارجا بثغر آذربيجان منذ سنة ٢٠١ . يقول آبن الأثير : إنه تحرك فى الجاويدانية : أصحاب جَاوِيدَانَ بن سهل صاحب البذ، وآدّعى أن روح جاويدان قد حلّت فيه، وأخذ فى العبث والفساد . وتفسير جاويدان : الدائم الباقى . ومعنى خُرَّم فرج . وهى مقالات المجوس . والرجل منهم ينكح أمه وأخته وآبنته، ولهذا يسمونه دين الفرج، ويعتقدون مذهب التناسخ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره .

ويقول اليعقوبى : "إنه تحرّك بتحريض حاتم بن هَرْثَمَة، لما قتل المأمون أباه هَرْثَمَةَ بن أَعْيَنَ . تحرّك فغلب فى عمل آذربيجان ، وبلغ المأمون الخبر، فولّى يحيى بن معاذ بن مسلم : مولى بنى ذُهْل أرمينية، (وأمره بحرب بابك) ففعل ذلك . وأوقع يحيى بن معاذ وقعات لم يظهر عليه فى وقعة منها؛ وكان المأمون قد أمر عيسى بن محمد بن أبى خالد، القائد المحارب كان فى أيام المخلوع. فلما لم يحمد أثر يحيى ولى عيسى أرمينية وآذربيجان ... ... ولقيه بابَك فهزمه ، فمرّ عيسى موليا لا يقف ... وانصرف من آذربيجان إلى أرمينيه ... ... وآستعظم أمر بابَك بالبذ، فولى المأمون زُرَيق بن على بن صَدَقة الأزدى ، فلم يصنع شيئا . فولى محمد بن حُميد الطوسى (الذى سبق رثاء أبى تمام فيه) فقتل محمد، وانهزم العسكر" .

(ب) آتصال أبى تمام بأبى سعيد الثغرى : كان من قواد محمد بن حُميد الطوسى الطائى هذا فى موقعته مع بابك ، أبو سعيد محمد بن يوسف الطائى ، ويلقب بالثغرى نسبة لعمله معظم أيامه فى ثغور المسلمين .

ومحمد بن يوسف الطائى من ممدوحى أبى تمام، الذين ظل آتصاله بهم من أوّل معرفتهم له حتى آخر أيام حياته . ويظهر لى أن معرفة أبى تمام بأبى سعيد كانت قبل سنة ٢١٤ هذه . فلأبى تمام فيه شعر يدل على أنه كان صغير السن يوم قاله ، وأن أبا سعيد لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار . يقول له بعد بكاء :

فلئِنْ شطَّتِ الديارُ وغالَ الـ ـمَدَ هِـرُ فى آلِيف وفى مألوف
وتبدَّلتُ بالبشاشةِ حزنا بعد لَهْوٍ فى مَرْبع ومصيف
فعزائى بأن عِرْضى مصونٌ سائغُ الوِردِ، والسماحَ حليفى
ثم عِلمى على حداثةِ سِنى بصروف الدهورِ والتصريف

ومنها :

ليت شِعْرى ماذا يُرِيبُكَ منى ... ولقد فقتُ فِطنة الفيلسوفِ
انتهِز فرصة تسترك منى ... بآصطناع الخيراتِ والمعروفِ
أنا ذو منطِقٍ شريفٍ لإعطا ... ءٍ ومنطِقٍ لِمنع عنيفِ
ما أبالى إذا عتتك أمورى ... كيف أنْحَتْ علىَّ أيدى الصُّروفِ

فهو فى الأبيات جديد لديه ، يقدّم إليه بضاعته ، وأبو سعيد مشغول عنه . وهو ما يبعد أن تكون عليه حال أبى تمام صاحب الرثاء فى محمد بن حُميد . وله أبيات لها نفس هذا الروح أوّلها :

فآشْدُدْ يديك على يدى وتلافنِى ... مِن مَطْلبٍ كدِرِ الموارِدِ راكدِ

الأبيات . وله فيه قصيدة أخرى ، تدل على أن آتصاله به سنة ٢١٤ إنما كان تكملة لحياة سبقت له معه ؛ إذ أن فيها روحا قلقا ، وضعفا هو ضعف الناشئ :

حلّ الأميرُ محل رِفْدِ الرافدِ ... ومُبيح طارِفِ مالِهِ والتالدِ (١)

ومنها :

أليأس أَلْزَمَنِي محلَّ القاعدِ ... إذ ليس جَدِّى فى الجدودِ بصاعدِ
مالى حُرِمتُ لديْكَ حُظوة خالدٍ ... أو لستُ أقدمَ حُرمة من خالدِ
عَوَزُ الرجال أقامَ مُنَّةَ خالدٍ ... والصيفُ نفّقَ سوق بردِ البارِدِ
شخصانِ أفّا كانِ قِيلُهما الخَنا ... حلاّ لديْكَ مَحَلَّ عمرو الزاهدِ

ومنها :

فعلامَ أُصبحُ مِن ندَاكَ بمعزِلٍ ... وسواى تلحظُهُ بعينِ الوالدِ

ففيها حس باليأس والحرمان ، وقعود الجد ، وهو أشبه بشعره أول أمره .

وكان أبو سعيد هذا من مَرْو . ويقول عنه أبو تمام :

غَرَّبتْه العُلَى على كثرةِ الأهـ ... ـلِ فأضحى فى الأقربين غريبا
فَلْيطُلْ عمره فلو مات فى مر ... وِ مُقيما بها لمات غريبا

ويذكر الصولى عنه أيضا أنه كان من مرو . وظنى أنه أتصل به فى خراسان ، قبل مقدمه مصر للمرة الثانية . أى قبل سنة ٢١١ . وربما يكون عرف عن طريقه آل حميد .

(١) شرح التبريزى — ج ٢ ص ٢٨٢ .

هذا احتمال لا نستطيع أن نقطع به، يساعده ما ذكرت . وقد يكون اتصال أبي تمام به أول اتصال سنة ٢١٤، لما مات محمد بن حُميد فكان من محاولاته ما رأينا .

(ج) اتصاله بمهدى بن أصرم : ممن اتصل بهم أبو تمام، من قواد هذه المعركة أيضا مهدىّ بن أصرم[1]، وهو طائى أيضا يقول أبو تمام :

عَميدُ الغَوْثِ إنْ نُوَبُ الليالى ... سطَتْ وقَريعها عند القِراع

وهو من قصيدة مطلعها :

خُذى عبراتِ عينِك من زُماعِى ... وصُونى ما أذلتِ من القِناعِ
أَقِلِّى ، قد أضاقَ بُكاكِ ذَرْعِى ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذراعِى
أآلفةَ النحيبِ كم افتراقٍ ... ألمَّ فكان داعِيةَ اجتماعِ

(د) أثر معارك بابك فى شعر أبى تمام : وكما ألهمت هذه الموقعة أبا تمام هذا الشعر كله ، ظل أثرها يتردّد فى شعره بعد ذلك زمانا . فهو إذا مدح محمدا أبا سعيد الثغرى بعد ذلك سنة ٢٢٠، ذكر ابن حُميد شهيد بابك فقال له :

مِن كل قَرمٍ يرى الأقدام مأدبة ... إذا خَدَى مُعْلَمًا بالسيف أو وَسَجا[2]
تنمِى محمدا الثاوى رِماحُهُمُ ... ويسفحون عليه عَبْرة نَشَجا

ويقول فى أخرى قالها بعد أخذ بابك سنة ٢٢٢ :

والله يشكر والخليفة موقفا ... لك شائعا بالبَذِّ صعْبَ المشهد
أدركت فيه دم الشهيدِ وثأره ... وفلجت فيه بشكرِ كل مُوحِّد[3]

* * *

وعندى أن هذه الموقعة ، وانفعال أبى تمام بها ، قد أعطت شعره لونا جديدا . ذلك أن شعر أبى تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب ، أما بعد هذه الموقعة ، فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .

(١) كما هو فى الديوان وفى تاريخ اليعقوبى . أو سعدى بن أصرم كما هو فى تاريخ ابن الأثير .
(٢) خدى البعير والفرس خديا وخدبانا : أسرع . والوسيج : سير الإبل والفعل وسج كوعد .
(٣) الفلج : الظفر والفوز .

٩ — تنقل أبي تمام بين الثغور

إذا كان أبو تمام بأذربيجان فهو فى إقليم يجاور إرمينية . وهى ثغر من ثغور المسلمين، الملاصقة لأرض الروم فى آسيا الصغرى . وكانت إرمينية، ككل ثغور المسلمين فى هذه الناحية، محل اتصالهم بقوة معادية ، تتبادل فيه الغارات بين الأمتين . وطبيعة البلاد الجبلية ، وتلك الاضطرابات الدائمة على حدودها ، وآندساس العناصر الغريبة فيها ، كان يجعلها محلا لثورات بعض أبنائها ممن يوقظ أطماعَهم المدّ والجزر الدائمان على الحدود، وتحريض العدو؛ فما كانت تهدأ ثورة حتى تثور أخرى .

(ا) اتصاله بخالد بن يزيد : ففى سنة ٢١٤، وهى السنة التى كان فيها أبو تمام بأذربيجان، كان المأمون قد وجه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى لإخضاع ثائر بأرمينية، يدعى محمد بن عَتّاب، فأخضع خالد الثوار ، وقتل فيهم وأسر، وأرسل الأسرى إلى المأمون . فما كان من المأمون إلا أن عفا عنهم ، وضمهم إلى جند أخيه المعتصم . ويقول اليعقوبى : " إنه عزل خالدا عن أرمينية وولاها آخر، فأحس خالد السعاية ، فانحدر خالد إلى بغداد، فضمه الخليفة إلى المعتصم" .

(ب) مدح أبي تمام للمأمون : وأرجح أن أبا تمام قد آتصل به فى هذه المرّة ، إذ بعدها بقليل نجد من قصائده فيه قصيدة تتصل بغزو المأمون للروم فى سنة ٢١٦ كما سيجىء بعد .

" فى سنة ٢١٥ خرج المأمون فى المحرّم متوجها إلى بلاد الروم، فغزا الصائفة ، وآفتتح أنقرة ، نِصفا بالصلح ، ونصفا بالسيف ، وأخربها . وهرب منويل البطريق منها . ثم آنصرف فنزل على دمشق"[1] . فيقول أبو تمام لأبى سعيد بن يوسف الثغرى، وكان مع المأمون كما يفهم من اليعقوبى[2]:

لمّا فصلتَ من الدروبِ إليهمُ ... بعزمٍ للأرضِ منه خُوارُ
إنْ يَبْتكِرْ تُرشِده أعلامُ الصُّوى ... أو يَسْرِ ليلا فالنجوم مَنَار
فالحَمَّةُ البيضاء مِيعادٌ لهمْ ... والقُفْلُ خَتْمٌ والخليج شِعار

ومنها :

إنْ لا تَنَلْ مَنْويلَ أطرافُ القَنا ... أو تُثْنَ عنهُ البِيضُ وهي حِرارُ
فلقد تَمَنّى أنّ كلَّ مدينةٍ ... جَبَلٌ أشمُّ وكلَّ حِصنٍ غار

ولم يذكر فى التاريخ آسم مَنويل هذا إلا فى هذه الموقعة بين الروم والمأمون ؛ ومعنى هذا أن أبا سعيد كان يقوم بعمل فى هذه المعركة إلى جانب المأمون .

(١) تاريخ اليعقوبى . (٢) نفسه (ج ٢ ص ٥٦٩) .

* * *

وفى سنة ٢١٦ عاد المأمون الى بلاد الروم غازيا، فداس أرضا، ووجه المعتصم وغيره ففتحوا، وهدموا حصونا ؛ ثم عاد الى دمشق، فنزل بها . يقول اليعقوبى : "وبلغ المأمون أن طاغية الروم قد زحف، فوجه إليه العباس ابنه، فلقيه وهزمه . وكان العباس على الجزيرة منذ سنة ٢١٤، وفتح الله على المسلمين ، ووجه اليه تَوفيلُ ملك الروم، بالأسقف صاحبه، ومعه كتاب منه ، رفض المأمون أن يقرأه، وسأل أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده ، وهم سبعة آلاف أسير، وأن يدع لهم ما افتتح من مدائن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنين ، فلم يجبه الى ذلك ، وانصرف الى كيسوم من أرض الجزيرة من ديار مضر"[1] .

وكان خالد بن يزيد الشيبانى، على ما رأيناه من قبل فى عسكر المعتصم. فيقول أبو تمام فى قصيدة له فيه، بعد أن يصف رحلته إلى خالد[2] :

ولمّا رأى توفيلُ راياتِك التى ... إذا ما استقامتْ لا يقاومها الصلبُ
تولّى ولم يألُ الرّدَى فى اتّباعِه ... كأنّ الردى فى قصدِه هائمٌ صَبُّ
كأنّ بلاد الروم عُمّتْ بصيحةٍ ... فضَمّتْ حَشَاها، أو رغا وسْطَها السّقْب
بِصاغرةَ القُصْوَى وطِمّينَ واقترى ... بِلاد قَرَنْطَاؤوسَ وابلُك السّكب
غدا خائفا يستنجد الكتب مذعنا ... عليك فلا رُسْلٌ ثنتك ولا كتب
وما الأسدُ الضّرغام يوما بعاكسٍ ... فريسته إنْ أنّ أو بصبص الكلب
مضى مُدْبِرا شَطر الدبورِ ونفسه ... على نفسه مِن سوءِ ظن بها أَلب
جفا الشرق حتى ظَن مَن كان جاهلا ... بدينِ النصارى أنّ قِبلته الغرب

ولهذه القصيدة زمن آخر يمكن أن توضع فيه، وهو سنة ٢٢٣ . وذلك فى أيام المعتصم، لمّا خرج لفتح عمورية ، انتقاما لغزو الروم زبطرة، والتمثيل بأهلها . فقد اجتاحت جيوش المسلمين بلاد الروم، وكان خالد بن يزيد الشيبانى والى إرمينية يومئذ من قبل المعتصم، ولكنه لم يلبث بها طويلا . يقول اليعقوبى « فولى المعتصم خالد بن يزيد أرمينية، وناحية من ديار ربيعة . فلما بلغ خبره إرمينية تحصن كل رئيس فيها، واشتد خوفهم منه، وعملوا على العصيان. فكتب منصور بن عيسى السبيعى، صاحب بريد أرمينية، إلى المعتصم بذلك، فردّ خالدا وأمر باقرار على بن الحسين[3] » .

فليس هناك ما يمنع أن يكون خالد قد ردّ عن أرمينية فاشترك فى فتح عمورية وغزو أرض الروم .

(١) (ج ٢ : ص ٥٦٨) . (٢) ديوانه ص ١٦ (٣) ج ٢ ص ٥٨٠

* * *

وقدم المأمون مصر، كما يقول الكندى "لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ لإخضاع الثائرين من أهل الحوف، وكان قد سبقه إليها الأفشين. وبعد أن استقام الأمر فيها، خرج عنها فى يوم الخميس لثمانى عشرة من صفر". يقول اليعقوبى "وقدم دمشق منصرفا من مصر، فأقام أياما، ثم شخص إلى الثغر فنزل أَذَنَة معسكرا بها. وقد كان أبو سعيد محمد بن يوسف الطائى و... من أصحاب محمد بن حُميد الطوسى، الذين كانوا بآذربيجان صاروا الى باب المأمون ...".

ولم يكن أبو تمام حتى ذلك الحين قد اتصل بخليفة من الخلفاء ولا مدحه، فأراد أن يجرّب حظه هذه المرّة، فقال فى سنة ٢١٧ والمأمون يومئذ فى غزو الروم بعد عودته من مصر، قصيدة مطلعها:

كُشِف الغطاء فأوقِدى أو أخمِدى ... لِمْ تَكْمَدِى فَظننتُ أَنْ لَمْ تَكْمَدِى

ومنها يذكر مجيئه مصر:

فانتاشَ مِصرَ مِن اللُّتيّا والتى ... بِتجاوزٍ وتعطُّفٍ وتغمُّدِ

ولما كانت هذه أوّل مرة يتجه فيها بشعره إلى خليفة عالم كالمأمون، فقد بذل أبو تمام فى نظمها غاية ما يستطيع من جهد، وأفرغ فيها كل مواهبه الصناعية، فخرجت أشبه بكل هذه الزخارف التى يسوق الإنسان إليها نفسه سوقا، ويدفعها فى إخراجها دفعا، خاليةً من الروح القيم الذى يجرى فى كثير من شعر أبى تمام. ولقد مضى المطلع، واست أرى فيه حظا من توفيق، ليس فيه جديد معنى وإن كان فيه عظيم تكلف.

ففى المطلع من البديع. أوقدى وأخمدى، وفيه لِمْ ولَمْ، وفيه تَكْمَدى بمعنى تخفين الكمد، وتَكْمَدى بمعنى تصابين بالكمد، والقصيدة مليئة بعد ذلك بالمحاولات البديعية، المحتمل منها وغير المحتمل، وفيها من الأبيات ما أخُذ على أبى تمام التغميض فيه، أو قبح الاستعارة. فالجرجانى يتساءل أهناك بيت شعر أحوج إلى تفسير بقراط من قول أبى تمام:

يومُ أفاضَ جوى أَغاضَ تعزّيا ... خاض الهوى بَحْرَىْ حِجاهُ المُزْبِدِ

والآمدى يقول: وهل يزيد قبح الاستعارة على قوله:

فَطَوَيْتَ بالموعودِ أعناقَ الورى ... وحَطَمْتَ بالإنجازِ ظَهرَ المَوْعِدِ

وإن عباراته فى الاعتراض على قول أبى تمام فى هذه القصيدة :

جارَى إليه البين وصلَ خريدةٍ ماشتْ إليه المَطْلَ مشْيَ الأكيدِ

لتُشبِه صراخ الجازع . فهو بعد تفسير البيت يهتف مستنجدا بأهل اللغة العربية . ومنها البيت الذى يضربه الآمدى مثلا للعاظلة وهو :

يايومَ شَرَّدَ يومَ لهوِىَ لهوُهُ بصَبابتى، وأذلَّ عِزَّ تجلُّدِى

كما أن فيها من الألفاظ : " العنقفير المؤيد " وكفى . ويظهر أن أبا تمام كان يريد أن يتقرب الى المأمون غاية ما يستطيع . فيقول له :

ووسيلتى فيها إليكَ طريفةٌ شامٍ يدينُ بحبِّ آلِ محمدِ[1]

نِيطت قلائد ظَرْفِهِ بِحميرٍ متدمشقٍ متكوفٍ متبغددِ

فهو يتوسل إلى قربه بأنه شامى يحب آل النبى، مع أن كل شامى متشيع لبنى أمية .

قال التبريزى «ووصف نفسه بالمتكوف ليمت إلى المأمون بانه شيعى، لأن المأمون أظهر التشيع فى أول أمره، وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعه. ومتدمشق، لأنه من جاسم من أعمال دمشق، ومتبغدد، أى ظريف، لأن أهل بغداد ينسبون إلى الظَّرف . وإذا رأيت أن الشارحين قد أخرجوا هذه الصفات إلى معانيها التبعية عن الأصلية، فلا يلزم منها أنه ذهب إلى الحيرة ودمشق وبغداد والكوفة وإن جاز ذلك " .

وأظننا الآن لسنا بحاجة الى الاحتجاج بهذا البيت، فقد كان أبو تمام جاب قبل قوله هذا، العراق وأبعد إلى غيرها . وإلى البيتين الماضيين ثالث :

حتى لقد ظنَّ الغواةُ وباطلٌ أنْ قد تجسَّمَ فىَّ روحُ السيدِ

أى باطل ما ظنوا، من أن روح السيد الحميرى الشاعر المتشيع قد حل فىّ . فهو ينكر الحلول، ولا ينكر التشيع . وفى هذا ما يستأنس به، ليسند ما قلت من أنه قال قصيدته المتشيعة يوم كانت سنه سبع عشرة كما ذكر فيها، تقربا لأصحاب الشأن يومئذ، كالخليفة وآل سهل .

(ولا نعرف أأنشد قصيدته هذه بين يدى المأمون، أم أرسلها اليه . وفى القصيدة بيت قد يؤخذ منه أنه بعثها اليه وهو بعيد عنه يقول منها)

ومُزَحْزِحَاتى عن ذراكَ عوائقٌ أصحرْنَ بى للعنقفير المُؤْيِدِ

(١) يقال فى النسبة إلى الشام : هو شامىٌ وشامى وشام .

والمصّيصة كما فى ياقوت مدينة على شاطئ جيحان ، من ثغور الشام بين أنطاكية و بلاد الروم ، تقارب طَرَسُوس . ومن الحديث يفهم أن ذلك كان بعد فتح عمُّورية ، ولم تفتح عمُّورية إلا فى سنة ٢٢٣ فى قول ، أو سنة ٢٢٤ فى قول آخر . وأبو تمام فى قصيدته هذه شاعر حقا . يقول فى إرضاء حسه الشعرى أكثر مما يقول فى إرضاء المأمون بمدحه .

* * *

تأتى بعد هذه قصيدة ثالثة مطلعها :

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سَلامُ كَمْ حلَّ عقدة صبرِهِ الإلمامُ

ومنها غزل يمتاز بحلاوة الروح ، و إطالة النظر فى العاطفة ، وتتابع الفكرة ، ونضج الشعر :

وقفوا على اللومَ حتى خَيَّلوا أَنَّ الوقوفَ على الديارِ حرامُ
لا مَرَّ يومٌ واحدٌ إلا وفى أحشائه لِمحلَّتَيْكِ غمام
حتى تُعمَّمَ صُلْعُ هاماتِ الرُّبى مِن نَوْرِهِ وتأزَّرُ الأَهْضام
ولقد أَراكَ فهل اراك بغبطةٍ والعَيش غَضٌّ والزمانُ غُلام
أعوامُ وصلٍ كان يُنسِى طولَها ذكرُ النَّوَى فكأنها أحلام
ثم آنبرتْ أيام هجرٍ أردَفَتْ نجوَى أَسًى فكأنها أعوام
ثم آنقضتْ تلك السنونُ وأهلُها فكأنها وكأنهم أحلام
أَتحدَّرتْ عبراتُ عينكِ أن دعتْ ورقاءُ حينَ تَضعضعَ الإظلام
لا تشجينَّ لها فإنّ بكاءها ضحِكٌ وإنّ بكاءك آستِغرام
هنَّ الحمام، فإن كسرتَ عيافةً مِن حائهن فإنهنّ حِمام

شعر كأنه الحديث الجارى سهلا رخاء ، ليس يخبط فيه صاحبه كما يشاء لسانه ، وكما تحكمه عباراته ، لكنه يفكر و يتأمل و يتتبع فكرته ، وهو يحس فينظر فى حسه قبل أن يبرزه الناس ، يروض العبارات ترويضا لأدائه . ليس بالرياضة القاسية التى تجعل الشعر ناشف الماء ، ذابل الرونق . وفيها مزج بين وصف جمال الطبيعة ، والغزل ومنها يذكر غزاته :

لمّا رأيتَ الدينَ يخفِق قلبُهُ والكفرُ فيهِ تَغَطْرُسٌ وعُرامُ
أَوَرَيْتَ زَنْد عزائم تحتَ الدجى أَمرجْنَ فِكرَكَ والبلادُ ظلام

وترى فى هذا البيت الصلة بينه و بين بيته فى قصيدته الأولى فى المأمون وهو :

وأرى الأمورَ المشكلاتِ تمزّقت ظُلُماتُها عن رأيك المتوقدِ

ومنها يذكر الروم وحربه معهم و يصف جيش المأمون :

فنهضتَ تسحب ذيل جيشٍ ساقَهُ حسنُ اليقينِ وقادَهُ الإقدامُ

* * *

سَفَعَ الدُّءوبُ وجوهَهُم فكأنهم وأبوهُمُ سَامٌ أَبوهُمْ حَامُ
تَخِذُوا الحديدَ من الدروعِ معاقلاً سُكّانها الأرواحُ والأجسام
مسترسلين إلى الحتُوف كأنما بينَ الحتُوفِ و بينهم أرحام
آسادُ موتٍ مخْدِرات مالها إلا الصوارِمُ والقَنا آجام
حتى نقضتَ الرومَ منك بوقعةٍ شنعاءَ ليس لِنقضها إبرام
فى مَعْرَكٍ أَمَّا الحِمامُ فمفطِرٌ فى هبْوتيهِ والكماةُ صِيام
والضربُ يُقعِد كلَّ قَرْمٍ كتيبةٍ شِرسِ الضريبةِ والحتُوفُ قِيام
ففصمتَ عُروةَ جمعِهم فيها وقد جعلَتْ تفصّمُ من عُراها الهام

* * *

ما كان للإشراكِ فورةُ مَشهدٍ واللهُ فيه وأَنتَ والإسلام
لمّا رأيتَهُمُ تساق ملوكُهم حِزقا إليكَ كأنهم أَنعام
جَرْحَى إلى جرحى كأنّ جلودهم يُطْلَى بِها الشّيّان والأعلام
متساقِطى وَرَقَ الثياب كأنهم دانوا فأحدَثَ فيهمُ الإحرام
أَكرمتَ سيفك غَربَهُ وذُبابهُ عنهم وحُقّ لِسيفك الإكرام

هذه الأبيات فى وصف الحرب، التى لا أجد من نفسى القدرة على مقاومة تأثير جمالها، كانت أثرا من آثار الحياة الجديدة التى جرّتْ إليها أبا تمام ظروف العراق والمشرق .

* * *

مات المأمون، على ما يقول اليعقوبى، يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ٢١٨ فى الثغور، حيث كان يغزو بين لؤلؤة وطرسوس؛ فحال الموت بين أبى تمام و بين ما كان يبغيه .

ولسنا ندرى ماذا نال الشاعر من الخليفة، ولا كيف أستقبل هذا الحادث. وليس فى ديوانه رثاء له، ومع ذلك فإن نقص شعر أبى تمام لا يجعلنى أقطع بأنه لم يرثه لما مات .

وكان المأمون لما خرج إلى بلاد الروم فى محرّم سنة (٢١٥) أستخلف على بغداد إسحق بن إبراهيم بن مُصْعَب، وهو آبن عم عبد الله بن طاهر، وولاه مع ذلك السواد، وحلوان، وكور دجلة.

فلما مات المأمون بالثغر "كان معه المعتصم، فبايعه القوّاد، ثم عاد إلى بغداد فى مستهل رمضان؛ فما كاد يستقر بها، حتى خرجت المحمّرة بالجبل، فقتلوا وقطعوا الطريق، وأخافوا، وعرضوا لحاجّ خراسان فهزموهم، وقتلوا منهم جماعة. فوجه المعتصم إسحق بن إبراهيم فى جيش، وأستخلف إسحق على الشُّرَط أخاه طاهرا، ونفذ فواقعهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأقام حتى أصلح البلد بعد أن نالته منهم شدّة"[1].

أما مذهب المحمرة هؤلاء، فيحدّثنا آبن الأثير حديثا، يفهم منه أنهم كانوا على دين الخرّمية، أصحاب بابك الخُرّمىّ، وقد سبق حديثى عنهم. فيذكر فى حوادث سنة ٢١٨ "أن كثيرا من أهل الجبال، وهمذان، وأصبهان، وماسبذان وغيرها، دخلوا فى دين الخرّمية، وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان. فوجه إليهم المعتصم العساكر، وكان فيهم إسحق بن إبراهيم المصعبى (ممدوح أبى تمام)؛ فعقد له على الجبال فى شوال. فسار إليهم فأوقع بهم فى أعمال همذان، فقتل منهم ستين ألفا، وهرب الباقون الى بلد الروم، وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية".

ولقد كان أبو تمام أيام غزو المأمون، بنواحى الثغور، يضطرب بين أذربيجان و إرمينيّة، يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وخالد بن يزيد الشيبانى. و يظهر لى أنه نزل الى الشام فزار أهله، ثم آتجه الى الشمال يمدح المأمون بمدائحه السالفة. و ينبغى أن نلاحظ هنا أن الدفاع فى الثغور، كان خطا متصلا يبدأ على حدود إرمينيه وأذربيجان، و يتجه غربا حتى يصل إلى طَرَسُوس، على ساحل البحر الأبيض. ونجد فى التاريخ ما يشير إلى آتصال حكام هذه الثغور جميعا، فى الهجوم على أرض الروم، وفى الدفاع عن حدودهم، حتى يكوّنوا بذلك جبهة مشتركة. ونجد ذلك واضحا فى آتصال أبى سعيد الثغرى، وقد كان بأذربيجان، وخالد بن يزيد بن مَزْيد وقد كان بإرمينية، بغزوات الخلفاء حين كانوا يتجهون للهجوم على بلاد الروم. وفى وقت الحرب لا يمكن أن يستقر أحد هؤلاء القوّاد فى مكان واحد. وهذا علة انتقال أبى تمام، وتعدّد أشخاص ممدوحيه فى الزمن الواحد.

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٧٥

(ج) آتصاله باسحاق بن إبراهيم المصعبي : لا نعرف أرحل أبو تمام مع الخليفة إلى بغداد، أم بقى فى الثغور بعد رحيل الخليفة . إلا أننا نجد له شعرا فى مدح إسحق بن إبراهيم المُصْعبي، الذى تحدثت عنه قبلا، والذى كان على شرطة بغداد، ثم أرسله المعتصم لإخضاع المحمِّرة لما خرجوا بالجبال ، بأعمال همذان ؛ قال فيه قصيدة يقول جامع الديوان فى رأسها إنه قالها يذكر فيها إيقاع إسحق بالمحمّرة وأصحاب بابك، وكانوا تواعدوا إلى موضع علم به، فوقف لهم فيه، فكل من جاء قتل، وجزت أذنه ، حتى وجه إلى المعتصم بستين ألف أذن .

ومطلع هذه القصيدة :

خَشُنْتِ عليه ، أختَ بنى خُشَينِ! وأوقع فيك قولُ العاذلينِ

أنأيًا وآغترابا ؟ أى صبرٍ على البلوى يعزّ بنى ذَيْنِ

يقول منها :

سلِ الجبلَ الممنّعَ حيث أخنَى عليه زُخرُفًا نكدٍ وحينِ

وقال أخرى مطلعها :

أصْغَى إلى البينِ مفترًّا فلا جَرَما إن النوى أسأرتْ فى عقله لَمَمَا(١)

ومنها :

قرتْ بقُرّان عين الدين وآشترتْ بالأشتَرَيْنِ عيونُ الشِّركِ فآصطُلِمَا(٢)

ويومَ خَيْرَجَ والألبابُ طائرةٌ لو لم تكنْ حامىَ الإسلامِ ما سَلِمَا

ومنها :

غادرتَ بالجبلِ الأهواءَ واحدةً والشَّمْلَ مجتمعا والشعبَ ملتئِمَا

والبيت الأخير يشبه ما يقوله اليعقوبى من أنه " أقام حتى أصلح البلد ". (وقزان : كما يقول ياقوت قصبة البذين بأذربيجان، حيث استوطن بابك الخرمى . وخيرج بالراء المهملة — وليست بالزين كما هى فى الديوان — موضع) .

وقد قصده أبو تمام وهو بالجبال، كما يبين ذلك من قصيدة ثالثة، يتحدث فيها عن رحلته إليه ، ويظهر أنها أول قصائده فيه . يقول منها :

---

(١) اللمم محركة : الجنون (٢) أشتر : " ناحية بين نهاوند وهمذان . (ياقوت) " . وهم يقولون : البذ والبذين ؛ كما مضى فى نص ياقوت ، فلعل أبا تمام ثنى الأشتر على قياس تثنيتهم البذ .

وإلى جنابِ أبي الحسينِ تَشَنَّعتْ بزِمامِها كالمُصْعَبِ المخطومِ (١)
جاءتك في مَعْجٍ، خوانفَ في البُرَى وعَوارِفًا بالمُعْلَمِ المأمومِ (٢)
مِن كل ناجيةٍ كأن أديمها حِيصت ظِهارته بجلد أطومِ (٣)

الأبيات ... ... ومنها يذكر الجبال :

نفسي فِداؤُك والجِبالُ وأهلُها في طِرْمِساءَ من الخروبِ بَهيمِ
بالدَّاوَذَيْهِ وخَيْرِجٍ وذَواتِها عهدٌ لِسَيفِكَ لم يكن بذميمِ

ومنها يذكر استعمال المأمون له ، ثم المعتصم من بعد المأمون :

إنّ الخليفةَ والخليفةَ قبلَهُ بَلَواكَ تَرْبَ نصيحةٍ وعَزيمِ

ومنها أيضا ما يدل أنه قصده :

مَشتِ الخطوبُ القهقرى لما رأتْ خَبَبي إليك مؤكَّدا بِرَسيمي

يقول الصولى فى أخباره " ما كان أشغف بشعر أبى تمام من إسحق بن إبراهيم المصعبي (٤) " ومع ذلك فقد اختلف معه أبو تمام بعد هذه المرّة بزمن فى سر من رأى فهجاه .

١٠ — أبو تمام فى خراسان

فى خلال ذلك يكون عبد الله بن طاهر واليا على خراسان والمشرق ؛ وهو يومئذ من أكبر الناس . ولى المشرق منذ مات أبوه طاهر بن الحسين سنة ٢٠٧، فنَدَب لحكمه أخاه طلحة، فظل حاكما به إلى أن مات سنة ٢١٣ . فانحدر عبد الله إلى خراسان ، وقد خرج بها خوارج أوقعوا بأهل قرية الحمراء ، من أعمال نيسابور . فمهد الأرض ، ودخل نيسابور ، كما يقول ابن خلكان ، فى رجب سنة ٢١٥ ، وقد أمسك الغيث ، فأمطرتهم السماء . وكان جوادا ، كريم النفس . وله فى ذلك حكايات تشبه الحكايات التى تروى عن العرب فى عصر بطواتهم الذهبي (٥) . ولد سنة ١٨٢ ، وتأدّب فى صغره ، وقرأ العلم والفقه ، وسمع من وكيع ، وعبد الله المأموم ؛ وروى عنه إسحق بن راهويه ،

(١) تشنعت الناقة : جدت فى السير . والمصعب : الفحل . والمخطوم : البعير وقد جعل الخطام على أنفه .
(٢) المعج : السرعة . والخانف من الدواب ما أمال رأسه فى سيره إلى فارسه . المعلم : المعروف المشهور . والمأموم . المقصود .
(٣) الناجية : الناقة السريعة . وحيصت : خيطت . والظهارة : ضد البطانة . والأطوم : السلحفاة .
(٤) ورقة ١٠٨ (٥) ارجع إلى بعضها فى النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ١٩١ وما بعدها) .

وهو أكبر منه، ونصر بن زياد، وخلق سواهم . وكان بارع الأدب، حسن الشعر . وتقلد الأعمال الجليلة وأول ولايته مصر . ويعده آستانلى لين بول فى كتابه « تاريخ مصر فى القرون الوسطى » من أشهر قواد عصره .

(ا) الرحلة إلى خراسان : وقد عرفه أبو تمام ، وقال فيه شعرا ، لما كان فى مصر (سنتى ٢١٠ و ٢١١) لإخضاع آبن السرى ، وطرد الاندلسيين من الأسكندرية .

ويظهر أن أحداث العراق قد شغلت أبا تمام منذ سنة ٢١٤ حتى هذا العهد، (سنة ٢١٩)، عن الذهاب إلى آبن طاهر . فما هو إلا أن يموت المأمون، ويعود المعتصم عن الثغور إلى بغداد ، حتى يذكر أبو تمام آبن طاهر، فيأخذ فى السير إليه .

يأخذ فى السير إليه، وفى صدره آمال تبعث به إلى أن يقول لأحد ممدوحيه بالثغور ، (محمد آبن المستهل)، فى قصيدة يمدحه فيها :

أنا راحل ببلادِ مَرْوٍ راكبٌ فى جودةِ الأشعارِ كل مجيدِ

ثم يطلب منه فرسا يستعين به على قطع طريقه :

فأعِزّ ذلة رِحلتى بمهذَّبٍ حلوِ المَجيلِ مقذَّذٍ مقدودِ

ويسير حتى إذا بلغ قُومس، وقد طالت عليه الشُّقة قال :

يقول فى قومِس صحبى ، وقد أخذتْ منا السُّرَى وخُطا المَهْرِيّة القُودِ
أمَطْلَعَ الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلتُ كلّا ولكن مَطْلَعَ الجودِ

(ب) أولى قصائده فى آبن طاهر : يقول آبن خلكان : فلما وصل إليه أنشده قصيدته البديعة البائية، التى يقول فيها :

وركْبٍ كأطْرافِ الأسِنّة عَرَّسوا على مثلها والليلُ تبدو غياهِبُهْ
لِأمرٍ عليهم أنْ تتِمّ صُدورُهُ وليس عليهم أنْ تَتِمّ عواقبُه

ومطلع هذه القصيدة :

هُنّ عوادى يوسفٍ وصواحبُه فعزما فقد أدركَ السُّؤْلَ طالبُه
إذا المرءُ لم تستخلِص الحزمَ نفسُه فذُروته للحادثات وغاربُه

ويقول صاحب الأغانى : إن أبا تمام لما قدم إلى خراسان ، آجتمع الشعراء إليه ، وسألوه أن ينشدهم . فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً ، وستسمعوننى . فلما دخل على عبد الله أنشده :

* هن عوادِى يوسف وصواحبه *

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزه الله . وقال شاعر منهم ، يعرف بالرياحى : لى عند الأمير جائزة وعدنى بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل ، جزاء عن قوله للأمير . فقال : بل نضعفها لك ، ونقوم له بما يجب علينا . والقصيدة تنطق عزما ، وإقداما ، وأملا . وهو فيها يروض نفسه على الرحيل ، فى سبيل تحقيق أمله . وقوة عزيمته فيها ، وآختفاء ذلك الروح الحزين اليائس من غزلها ، ليس إلا رد فعل لذلك النجاح الذى لقيه فى سنيه التى قضاها فى العراق والثغور .

يقول منها لعاذلته فى جلد وإصرار ، وأغلب الظن أنها زوجه :

أعاذلتى ! ما أخشن الليلَ مَرْكَبًا ... وأخشنُ منه فى المُلِمّاتِ راكبُه
ذَرينى وأهوالَ الزمانِ أقانِها (١) ؛ ... فأهوالُه العُظْمَى تليها رغائبُه
ألم تعلمِى أنَّ الزُّماعَ على السُّرى ... أخُو النُّجح عند الحادثاتِ وصاحبه
دعينِى على أخلاقِى الصُّمِّ للتى ... هى الوَفْرُ أو سِربٌ تَرِن نوادبه
فإن الحُسامَ الهِنْدوانىَّ إنما ... خشُونَتُهُ مالَمْ تُفَلَّ مضاربه
وقلقل نأىٌ مِن خُراسانَ جأشَها ... فقلتُ : أطمئنى ، أنضرُ الروضِ عازبه

ثم يقول فى وصف رحلته إلى عبد الله ، وهى عادته حين يرحل إلى ممدوحه :

ورَكْبٍ كأطرافِ الأسِنةِ عرَّسوا ... على مثلها ، والليل تبدو غياهبُه
لأمرٍ عليهم أن تَتِمَّ صدُورُه ... وليس عليهم أنْ تتِم عواقبه
على كل موَّارِ المِلاطِ تهدَّمتْ ... عريكتُه العَلْياءُ وآنضم حالِبه
رعته الفيافى بعد ما كان حِقبةً ... رعاها ، وماء الروضِ ينهل ساكبه
فأضحى الفلا قد جَدَّ فى بَرْىِ نَحْضِه ... وكان زمانا قبل ذاك يلاعبه
فكم جَزْعُ وادٍ جَبَّ ذِروةَ غارِبٍ ... وبالأمسِ كانت أثْمكتْهُ مَذَانبه
إليكَ جزَعْنا مَغرِبَ المُلْكِ كلَّما ... وسَطْنَا ملاً صلَّتْ عليك سباسبه

(١) أقانى : أدارى . وهناك رواية أخرى : أقاسها .

ولا أراه إلا قد وُفِّق فى تصوير الرحلة، وذلك الليل الرهيب الأسود، وفى ذلك المس الرفيق للقلب، بتعريجه على الطبيعة يصف انهلال ساكبها، فى لفظ عذب رقيق. وهو بين ثنايا هذا الوصف، الرائع الأخاذ، الذى استمده من طريقه إلى ابن طاهر، لا ينسى عقله ولا يغفل عن فنه الذى تمازج فيه الفكرة الشعور:

لِأَمْرٍ عليهم أن تتمَّ صدورُه ... وليس عليهم أن تتم عواقبه

(ج) مغاضبة ابن طاهر إياه: ولقد نقلت ما كتبه صاحب الأغانى، فى كيف استقبل الشعراء هذه القصيدة، وأزيد عليه قوله: "إنه لما فرغ أبو تمام من القصيدة، نثر عليه عبد الله ألف دينار فلم يمس أبو تمام منها شيئا، والتقطها الغلمان. فوجد عليه عبد الله، وقال: يترفع عن برى، ويتهاون بما أكرمته به، فلم يبلغ ما أراد منه بعد ذلك".

ويروى الصولى إلى هذا سببين آخرين لغضب عبد الله.

أحدهما: أن أبا تمام حُجز على بابه مدّة، هو وجماعة، فكتب إليه شعرا:

أيُّهَذَا العزيزُ قَدْ مَسَّنَا الضُّرْ ... رُ جميعاً وأهلنَا أَشْتَاتُ

الأبيات. وقد ذكرتها قبلا. فغضب عبد الله من محاكاته القرآن.

والثانى: "وقيل: بل إن أبا تمام، لما دخل أبرشهر، هوى بها مغنية كانت تغنى بالفارسية، وكانت حاذقة طيبة الصوت. فكان عبد الله كلما سأل عنه، أخبر أنه عندها. فنقص عنده".

(د) تحقيق السبب فى غضب عبد الله بن طاهر: هذه جملة الأسباب التى ينسبون إليها فساد مابين عبد الله بن طاهر وأبى تمام، وليست تقبلها النفس جميعا قبولا سهلا؛ فإن كبرياء أبى تمام وأنفته أن يلتقط الدنانير الملقاة على الأرض، ليست من الأمور التى تهتاج نفسا كريمة كنفس عبد الله؛ ولأن غضب عبد الله يغلب أن يكون قد سبق إلى أبى تمام قبل أن يقول شعره الذى يقتبس فيه من القرآن، كما يظهر من قولهم: إنه كان محجوزا قبل قوله ببابه مدّة. كما أنه ليس فى قوله ما يجرح شعور مسلم. ولأن حب أبى تمام مغنية، وتردّده عليها، وإن يكن من الأمور التى يستنكفها أمير كعبد الله، إلا أن معرفته بأخلاق أبى تمام الشاعر تخفف من أثره. وفى تاريخ هذا العصر ما يشبه ذلك. فقد كان أبو نواس شاعر الرشيد، وهو أكثر الناس مجونا وفسقا.

ولكن هناك شيئا آخر، هو أهم من هذه جميعا، فقد نزل أبو تمام خراسان، فمدح عبد الله بالقصيدة السابقة، وٱستقبله عبد الله وشعراؤه ذلك الٱستقبال الجميل، ورحب به ترحيبا حقق هذه الآمال التى كان يعقدها عليه أبو تمام فى مقدمه . فكأن غضبة عبد الله إنما جاءت بعد مقدم أبى تمام خراسان، و بقائه فيها زمنا طويلا أو قصيرا .

لما نزل أبو تمام خراسان، أخذ يجوب أنحاءها .

يسقطُ الطيرُ حيث يُلْتَقَطُ الحَبْـ ـبُ وتغشَى منازلُ الكرماءِ

فمدح من يدعى عبد الله، حفْصَ بن عمر الأزدىّ، وكان رئيسا من رؤساء العرب فى ذلك الإقليم بقصيدة مطلعها :

عَفَتْ أَرْبُعُ الحِلاتِ لِلأَرْبَعِ المُلْدِ لِكل هَضيمِ الكَشْحِ، مجدولةِ القَدِّ

ويسير أبو تمام فى قصيدته هذه، فيصف حفصا بالبأس والقوّة، و يصف قدرته على قيادة قومه فى الحرب، ثم يأخذ بعد ذلك فى إبداء صفحة من التاريخ . فيصف لنا نزاعا، من نوع ذلك النزاع الذى كان يشب من آونة لأخرى بين العناصر المختلفة فى تلك الدولة الواسعة . فيصوّر ما كان بين الفرس والعرب من خصومة قامت يومئذ، و يشير إلى ٱنقسام فى صفوف العرب، بين قحطانيين وعدنانيين، و إلى أن حفصا هذا جمع بينهم . قال أبو تمام :

وأنتَ وقد مَجَّت خراسانُ داءَها وقد نَغِلَتْ أَطرافها نَغَلَ الجِلْدِ[1]

وأوباشَها خُزْرٌ إلى العربِ الأُلَى لِكيما يكونَ الحرُّ مِن خَوَلِ العبدِ

وما قصدوا إذ يسحبون على المنى بُرُودَهُمُ إلّا إلى وارثِ البُرْدِ

ورَاموا دم الإسلام لا مِن جَهالةٍ ولا خطأٍ، بل حَاوَلوه على عَمْدِ

فمُجُّوا به سمًّا ذُعافًا ولو نأَتْ سيوفُك عنهم، كان أحلَى مِن الشهدِ

ضممْتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها ولم يَجدُوا إذ ذاك مِن ذاك مِن بُدِّ

فأَضْحت بك الأَحياءُ أجمعَ أُلْفَةً كما أُحكِمَتْ فى النظمِ واسطةُ العِقْدِ

وكنتَ هناك الأَحنفَ الطَّبَّ فى بنِي تميمِ بن مُرٍّ، والمهلَّبَ فى الأَزدِ

وكنتَ أَبا غسَّانَ مالكَ وائلٍ عشيّةَ دانَى حِلفُهُ الحِلفَ بالعَقْدِ

(١) نغل الجلد كفرح أفسد فى الدباغة .

هذه الأبيات ، على ما أرى ، هى التى أغضبت عبد الله بن طاهر على أبى تمام . فقد كان عبد الله ينحدر من أصل فارسى ، فأبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، وفى رواية أخرى زريق بن أسعد بن رَاذَوَيْه ، وفى رواية ثالثة : أسعد بن زادان . كما يقول ابن خلكان .

ويقول عن جدّه مصعب أو عن طاهر نفسه — ففى العبارة ما يفهم منه الأمران — "إنه كان خزاعيا بالولاء" . ويقول اليعقوبى فى ترجمته : "البوشنجى" . وبوشنج بقرب هراة فى خراسان .

فإذا قال أبو تمام عن فُرْس خراسان ، وهم الذين كانوا يترقبون الفرصة للوثوب :

وأَوْبَاشُها خُزْرٌ إلى العربِ الأُلَى لِكيما يكونَ الحُرُّ من خَوَلِ العبدِ

أحس عبد الله أمر ما يحسه الإنسان إذا مُسَّتْ قوميته .

وإذا قال أبو تمام :

لَيالِى بَاتَ العِزُّ فى غيرِ أهلِه وعُظْمُ وغدُ القومِ فى الزمَنِ الوغدِ

وكان الأمير عبد الله من هؤلاء الذين يدعوهم أبو تمام بالأوغاد ، وأبو تمام هذا هو صاحب الأنفة العربية ، التى قد تكون أثارت بنفس عبد الله شيئا ، حين استكبرت على عطائه وجزائه ، فإن هذا يصبح جارحا ثقيلا .

وإذا قال أبو تمام ، وإن قصد بها إلى غير عبد الله :

وما قَصَدُوا إذْ يَسْحَبُونَ على المُنَى بُرُودَهُمُ إلاَّ إلَى وَارِثِ البُرْدِ

وكان الحسين بن طاهر هو خالع الخليفة المأمون ، وتارك الدعاء له على المنبر فى سنة ٢٠٧ ، وجد عبد الله فى هذا البيت شيئا من السعاية الخبيثة به ، هو بلا ريب كاره صاحبها وحاجبه عنه .

قد يكون أبو تمام قصد إلى هذا ، وقد لا يكون قصد إليه ، وإنما كان اندفاعه فى مدح صاحبه العربى ، ولكن مالا أكاد أشك فيه ، هو أن هذه الأبيات تغضب رجلا يمت إلى الفارسية بسبب . ويظهر أن عبد الله لم يصرح بسبب غضبه هذا ، ضنا بنفسه أن ينسب إلى عصبية . فلم يعرف أبو تمام ، أو لم يجرؤ أن يعتذر عنها هيبة . ولكن أبا تمام أتى خراسان ممتلا أملا وعزما ، فعزّ عليه أن يعود صفر اليدين ، فبقى يضرب فى أنحاء خراسان . فنزل أبرشهر ، وأحب تلك المغنية ، وشغف بحبها حتى ما كان يكاد يفارقها ، كما مضى فى أخبار الصولى ، وقال فيها شعرا :

أَيا سَهَرِى بليلةَ أَبْرَ شَهْرِ ذَمَمتَ إلىّ نومىّ فى سِواها
شكرتُك ليلة حسُنَتْ وطابت أَقام سُرورُها ومضى كرَاها
إذا وهداتُ أرض كان فيها رضاك، فلا تحِنّ إلى رُباها
سمعتُ بها غِناءً كان أَحْرَى بأَنْ يقتادَ نفسِى مِن عَناها
ومُسْمِعَةٍ تقُوتُ السمعَ حُسنا ولم تُصمِمْهُ لا يُصْمَمْ صَداها
مَرَتْ أَوتارَها فشجَتْ وشاقَت فلو يستطيعُ سَامعُها فَداها
ولم أَفهمْ معانِيَها ولكن وَرَتْ كبِدى، فلم أَجهلْ شَجاها
فبِتُّ كأَنّنى أَعمىّ مُعَنًّى بحب الغانياتِ وما يراها

(هـ) محاولته إصلاح ما بينه وبين ابن طاهر: ولم يغفل الأمير خلال ذلك عن الشاعر، فكان يسأل عنه فيُخْبَر أين هو. ويظهر أن أبا تمام كان بعث إليه برقعة فيها شعر، فلم يجبه عبد الله؛ فقال مرة ثانية يمدحه، ويوسط بينه وبينه، شاعِره أبا العميثل:

لَيْتَ الظباء أبا العَمَيْثلِ خبَّرت خبرا يروِّى صادياتِ الهامِ

ولست أرى ماهو مكتوب فى رأس القصيدة بالديوان من أنه قالها، لأن عبد الله كان وقّع له بشىء فتأخر عنه. ولقد طال بقاؤه فى خراسان، وحل عليه وهو بها الشتاء، وكان قارس البرد فقال:

لم يبْقَ لِلصَّيفِ لارَسْمٌ ولا طَلل ولا قَشيبٌ فيُسْتكسَى ولا سَمَلُ
عدْلٌ مِن الدمعِ أنْ يبكِى المصيف كما يُبْكَى الشبابُ ويُبْكى اللهوُ والغَزَلُ

والبيتان يريان مقدار حاجته فى ذلك الشتاء. وأخذ يحل به اليأس، وتنهار آماله، التى بناها وهو آت، وأحس وحدته وغربته، فأخذ يبكيها جميعا:

صريعُ هوًى تُغاديهِ الهُمومُ بنَيْسَابُورَ ليس له حَمِيمُ
غريبٌ ليس يؤنِسه قريبٌ ولا يأْوِى لِغربتِه رحيم
مقيمٌ فى الديارِ نَوًى شطُونٌ يشافهه بها كمَدٌ قَديمُ
يُمِدُّ زِمامَهُ طمع مقيم تَدرّع ثوبه رجلٌ عديم
رجاءٌ ما يقابله رَخاءٌ هو اليأس الذى عقباه شُوم

ثم يذكر أهله وداره بالشام، وقد رأينا كيف تركها إلى خراسان أول الأمر، مليئا بالعزم والأمل:

فقد فارقتُ بالغربيّ دارا ... بأرضِ الشامِ خفَّ بها النعيمُ
وكنتُ بها المُمَنَّعَ غير وَغْدٍ ... ولا نَكِدٍ إذا حلَّ العظيم
فإن أَكُ قد حللتُ بدارِ هونٍ ... صبوتُ بها فقد يصبو الحكيم
ألومُكَ لا ألومُ سواكَ دهرا ... قضى لى بالذى يقضى سَدُوم[1]
إذا أنا لَمْ أَلُمْ عثراتِ دهرٍ ... أُصِبْتُ بها الغداةَ فَمَنْ أَلُوم
وفى الدنيا غِنًى لم أَنْبُ عنه ... ولكن ليس فى الدنيا كريم

(و) رضا ابن طاهر: ولم ينقطع أبو تمام عن باب ابن طاهر فى خراسان، وحلّت سنة ٢٢٠ وهو فيها. يقول جامع ديوان أبى تمام، إن أبا تمام كان بنيسابور، على باب عبد الله بن طاهر، فخرج أبو العميثل حاجبه برقعة فيها بيتان من شعر قالهما عبد الله؛ فقال لأبى تمام: قل فى معنى هذين البيتين ووزنهما، وهما فى الأفشين. وكان يحارب بابك فى مدينة أرشق. والأفشين وُجِّهَ إلى حرب بابك سنة ٢٢٠، وفيها كانت موقعة أرشق هذه. وكأنما كان عبد الله يريد بذلك إرغام أبى تمام على مدح أعجمى قح، انتقاما منه، وتنكيلا بتلك العصبية التى دفعت بأبى تمام إلى قول شعره السابق، فقال أبو تمام قصيدته:

غدا المُلْكُ معمورَ الحَرَا والمنازلِ ... مُنَوَّرَ وَحْفِ[2] الروضِ عذبَ المناهلِ

وهذه القصيدة أول شعر قاله فى مدح الأفشين. وكأنما أحس أبو تمام لذلك كرها، فبدأ القصيدة بمدح الخليفة، وختمها بمدح الخليفة، ومدح فيما بين ذلك الأفشين. ومن هذه القصيدة الأبيات المشهورة:

تَسَرْبَلَ سِربالًا من الصبرِ وارتدى ... عليه بِعَضْبٍ فى الكريهةِ فاصلِ
وقد ظُلِّلَتْ عِقبانُ أعلامِه ضُحًى ... بعِقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهلِ
أقامَتْ مع الراياتِ حتى كأنَّها ... من الجيشِ إلَّا أنَّها لم تقاتلِ

(١) سدوم: يقال أجور من قاضى سدوم. وسدوم قرية قوم لوط، أو بلد بحمص سمى باسم ملك ظالم.
(٢) الحرا والحراة الناحية والوحف من النبات: الريان.

ويظهر أن الأبيات السابقة إلى أبي العميثل قد عملت عملها . يقول الصولى " فدخل على عبد الله بن طاهر ، فقال له : أيها الأمير ! والغضب على من حمل إليك أمله من العراق ، وكدَّ فيك جسمه وفكره ، ومن يقول فيك :

* يقول فى قُومَسٍ صَحْبِي وقد أخذَتْ * البيتان

قال : فدعا به ونادمه يومه ذلك ، وخلع عليه ، ووهب له ألف دينار وخاتماً[1] " .

ولم يكن مع ذلك يسلم من عنت عبد الله . ينقل الصولى عن المبرّد أنه قال : " مات آبنان لعبد الله بن طاهر فى يوم واحد ، فدخل عليه أبو تمام ، فأنشده :

ما زالتِ الأيامُ تخبِرِ سائلا أن سوف تفجع مُسْهِلا أو غافلا

إلى أن بلغ منها قوله :

لو ينشآن لكان هذا غاربا للمكرُمات وكان هذا كاهلا

إنَّ الهلال إذا رأيت نُمُوَّه أيقنتَ أن سيكونُ بدرا كاملا

قال : فلما سمع عبد الله ذلك ، وكان يتعنته كثيرا ، قال : قد أحسنت ، ولكنك تؤسفنى وليس تعزينى ؛ فلما قال :

قُلْ للأمير وإنْ لقيتَ مُوَقَّرا منهُ بريْبِ الحادثات حُلاحِلا[2]

... ... الأبيات . قال : الآن عزّيتَ " .

يقول الصولى : " وحلَّ الشتاء ، فاشتدّ عليه أمر البرد ، فقال شعره الماضى فى الشتاء " .

١١ — فى أذربيجان ثانية

مع أبي سعيد الثغرى فى حروب بابك : كان بدء المحرم من سنة ٢٢٠ يوافق (١٠ طوبه سنة ٥٥١ و ٥ يناير سنة ٨٣٥) أى أن أول تلك السنة وقع فى قلب الشتاء . وقد وجه المعتصم فى هذه السنة بالأفشين لحرب بابَك ، بعد أن عقد له على الجبال . وقبل ذلك ، كان أبو سعيد ، محمد بن يوسف الطائى بأذربيجان بأمر المعتصم . فيقول الطبرى : " إنه لما أفضى الأمر إلى المعتصم ، وجه أبا سعيد إلى أَرْدَبيل ، وأمره أن يبنى الحصون التى نهبها بابَك فيما بين زنجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال مَسالح ، لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة . ففعل . ووجه بابَكُ سَريَّةً

(١) ورقة ١٠٣ (٢) الحلاحل : السيد الشجاع أو الرزين .

له فى بعض غاراته ، وصيَّر عليهم رجلا آسمه معاوية ، فأغار على بعض النواحى ، ورجع منصرفا . فبلغ ذلك أبا سعيد ، فخرج إليه وواقعه ، وهزمه ؛ وهى أوّل هزيمة على أصحاب بابك " .

فلما جاء الأفشين أذربيجان ، كان من بين قواده أبو سعيد . وقد أنزله بُرْستاق يسمى (خُش) ، وأنزل قائدا آخر برستاق (أَرْشَق) . وفى هذه السنة (٢٢٠) ، كانت بين بابك والمسلمين موقعة مشهورة فى شعر أبى تمام ، يذكرها دائما فى مدحه أبا سعيد . وهى موقعة أرشق . يقول آبن الأثير : "وفيها هزم بابك ، ولم يُفلتْ من رجاله أحد ، وأفلت هو فى نفر يسير من خيالته ، ودخل مُوقان وقد تقطع عنه أصحابه ، ورجع عنه الأفشين إلى بَرْزَنْد[1] ، وأقام بابك بموقان ، وأرسل إلى البذ ، فجاءه عسكر ، فرحل بهم من مُوقان حتى دخل البذ " .

وقد رأينا أبا تمام قبل الآن فى خراسان ، عند عبد الله بن طاهر يقول شعرا فى موقعة أرشق هذه ، وفى الأفشين . فكأنه لم يشهد أرشق فى أذربيجان . ولكن شعره الذى قاله فى أحداث هذه الفترة ، مذكور فيه ما يفهم أنه قاله قبل أن يؤخذ بابك . وبابك إنما أخذ سنة ٢٢٢ ؛ فلما أخذ قال أبو تمام فى ذلك شعرا .

ترك أبو تمام خراسان بعد زمن موقعة أرشق فى سنة ٢٢٠ ، راحلا إلى أذربيجان ، حيث كان صاحبه أبو سعيد الطائى ينتصر فى الحرب مع الأفشين على بابك . ويظهر أن أبا تمام أخذ يجد بعد سنة ٢١٤ لذة فى شهود هذه المعارك ، الدائرة رحاها بين المسلمين وغيرهم . جاء إليها فظل بقية سنة ٢٢٠ وطيلة سنة ٢٢١ ، يستمدّ شعره فى ممدوحه أبى سعيد ، من آنتصاره أوّل مرة على معاوية قائد بابك ، ومن بلائه فى موقعة أرشق . جاء إلى أبى سعيد وهو يذكر أن أوّل نجاح قد لقيه فى هذه الناحية ، فتتجدّد عزيمته ، ونسمع من غزله فى أوّل قصيدة له فى أبى سعيد بعد رجعته ، تلك النغمة التى سمعناها منه أوّل مقصده آبن طاهر ؛ أيام كان يمتلئ أملا وعزما . يبدؤها بقوله :

غَدَتْ تستجيرُ الدمعَ خَوْفَ نوى غدِ وعاد قَتَاداً عندها كلُّ مَرْقَدِ

ومنها :

ولكنّنى لَم أَحْوِ وَفْرا مُجَمَّعًا فَفُزْتُ به إلّا بشملٍ مُبَدَّدِ

ولم تعطنى الأيامُ نوماً مُسَكَّنًا ألَذُّ به إلا بنومٍ مشرَّدِ

(١) يقول ياقوت : برزند : الدال مهملة : بلد من نواحى تفليس من أعمال جرزان من إرمينية الأولى . كان أوّل من عمرها الأفشين ، وجعلها معسكرا له بعد أن كانت خرابة . ويعدها أبو سعد من نواحى أذربيجان .

وطولُ مُقَامِ المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ لِدِيباجَتَيْهِ فاغتربْ تتجدّدِ
فإنى رأيتُ الشمس زِيدت محبةً إلى الناسِ أنْ ليستْ عليهم بسرمدِ

ومنها يذكر محمد بن حميد الطوسى، قتيل سنة ٢١٤ ولم يكن نسيه :

لقد كفَّ سَيْفُ الصامِتِيِّ محمدٍ تباريحَ ثارِ الصامِتِيِّ محمدِ

والصامتيون جماعة من طيئ ، منهم محمد بن يوسف ، وهو المقصود فى الشطر الأول ؛ ومحمد ابن حميد، وهو المقصود بالشطر الثانى، ثم يذكر هزيمة معاوية التى تحدّثت عنها :

عدا الليلُ فيها عن معاوية الردى وما شَكَّ ريب الدهرِ فى أنه رَدِى (١)

ثم يقول فى موقعة أرشق، وهرب بابك إلى موقان :

وفى أَرْشَقِ الهيجاءِ والخيلُ ترتمى بأبطالها فى جاحمٍ متوقّدِ
عَطَطْتَ على رغمِ العِدا عزمَ بابَكٍ بعزمك عَطَّ الأشْحَمِىِّ المعضَّدِ
فإنْ لا يكنْ ولّى بشلوٍ مقددٍ هناك فقد ولّى بعزمٍ مقدَّدِ
وقد كانتِ الأرماحُ أبصرن قلبَهُ فارمدَها سِترُ القضاءِ الممدّدِ
ومُوقانَ كانت دارَ هجرتِهِ فقد توردتها بالخيلِ أىَّ تورُّدِ
حططْتَ بها يومَ العروبةِ عِزَّه وكان مقيما بين نَسْرٍ وفرقدِ
رآكَ سديدَ الرأيِ والرمحِ فى الوغى تأزَّرُ بالإقدامِ فيه وترتدى

ويقول فى وصف هربه :

فمرَّ مطيعا للعوالى مُعَوَّدا مِن الخوفِ والإحجامِ ما لَمْ يُعَوَّدِ

ثم يتحدث فى آخرها عن رحلته إلى أبى سعيد :

إليك هتكنا جُنْحَ ليلٍ كأنّهُ قِدا كتحلتْ منه البلاد بإثْمِدِ

إلى آخر القصيدة .

تظل شاعرية أبى تمام تستمدّ فيضها من هذه الوقائع، بين أبى سعيد و بابَك، حتى سنة ٢٢٢ حين يؤخذ بابك . غير أن حضوره الوقائع بعد أرشق ، ورؤيته الجيوش تتحرّك وتقاتل ، يعطيه ما يضيفه إلى ما فى القصيدة السابقة من نواح طرقها . يأخذ فى وصف الجيش على ما يراه . وليس وصف الجيوش جديدا لديه فنسمعه فى قصيدته :

(١) يقال : عداه عن الأمر عدوا وعدوانا : صرفه وشغله .

يابُعْدَ غايةِ دَمعِ العيْنِ ما بعدُوا ... هى الصبابة طولَ الدهرِ والسُّهُد

يقول :

لَقِيتَهُمْ والمنايا غيرُ دافعَةٍ ... لِمَا أُمرتَ بِهِ ، والمُلتقَى كَبَدُ
فى مَوقِفٍ وَقَفَ الموتُ الذُّعافُ به ... فالمجدُ يُوجَد والأرواح تُفْتَقَد
فى حيثُ لامَرْتَعُ البِيضِ الرقاقِ ، إذا ... أُصْلِتْنَ ، جَذْب ولا وِرْد القَنا ثُمَد (١)

إلى أن يقول :

صَدَّعت جِرْيتهم فى عُصبةٍ قُلُلٍ ... قد صَرَّح الماءُ عنهم وانجلى الزبَد (٢)
مِن كل أَروعَ ترتاعُ المَنُونُ له ... إذا تجرَّدَ لا نِكسٌ ولا جَحِد
يكاد حين يلاقِى القِرْنَ من حَنَقٍ ... قبل السنانِ على حَوْبائِهِ يَرِد
قَلُّوا ولكنهم طابوا فأنجَدَهم ... جيشٌ من الصبر لا يُحصَى له عدد
إذا رأَوا للمنايا عارضا لبسوا ... من اليقينِ دُرُوعا ما لَهَا زَرَد
نأوا عن المَصْرَخ الأدنى فليس لهم ... إلا السيوفُ على أعدائهم مَدَد

ثم يذكر معاوية :

ولَّى معاويةً عنهم وقد أخذَتْ ... فيه القنا فأبى المقدارُ والأَمَدُ
نجَّاك فى الروع ما نجَّى سَمَيْدَعَ فِى ... صِفِّينَ ، والخيلُ بالأبطال تنجرِد
إنْ تنفلِتْ وأُنوفُ الموتِ راغمةٌ ... فاذهب فأنتَ طليقُ الرَّكضِ يالُبَدُ

ومنها يذكر بابك :

كأن بابَكَ بالبَذَّيْنِ بعدَهُمُ ... نُؤْىٌ أقامَ خِلافَ الحىِّ أو وَتِد

وفى هذه الفترة قال قصيدته :

أَبَى فَلَا شَنَباً يَهْوَى ولَا فَلَجا ... ولا أحوارا يراعيه ولا دَعَجا

---

(١) الثمد والثمد محركة : الماء القليل .

(٢) فى طبعات الديوان جرية : وجرية مصدر جرى يقال : جرى جريا وجريانا وجرية . وأولى بها أن تكون جربة بالباء المنقوطة بواحدة حتى يتسق مع عبارته (صدعت) . والجربة : بالكسر جلدة توضع على شفير البئر حتى لا ينثر الماء فيه ثانية بعد ماخرج منه . فهى أشبه منه بالوفاء إن تصدع آلتاث ماؤه . والقلل : القليل العدد .

ومما يدل على أنها قيلت قبل أخذ بابك قوله منها :

إنْ يَنْجُ منك أبو نصرٍ فعَنْ قَدَرٍ تنجو الرجال ولكن سَلْهُ كيف نجا
قد حلَّ فى صخرةٍ صماء مُعْنِقةٍ فانحتْ برأيك فى أوعارها درجا(١)

ومنها يذكر محمد بن حُميد :

تنعِى محمدا الثاوى رماحُهُم ويسفحون عليه عَبْرة نشجا

* * *

ومن القصائد التى يمكن أن يكون قالها فى هاتين السنتين قصيدته :

أَمَا إنّه لولا الخليطُ المودِّع وربعٌ خلَا منه مَصِيفٌ ومَرْبَعُ

فهو يقول منها :

لَدَى سَنْدَبَايا لا تَهابُ وأرشَقٍ ومُوقان، والسُّمْرُ اللِّدانُ تُزَعْزَع
وَأَبْرَشْتَوِيمَ والبِيارِ ومُلتقَى سَنابِكها والخيلُ تَرْدِى وتَمْزَع(٢)

١٢ — ميزات شعره فى هذا الطور وبعد هذه الرحلة

رحلة أبى تمام الى خراسان، ختام طور من أطوار تاريخ شعر أبى تمام ، وبدء طور جديد يتميز عن جميع عهوده الماضية . فبعد رجعة أبى تمام من خراسان ، يبدأ دور أنضج شعره وأكمله . ففى قصائده طول غير متكلف، وخصب واضح ولين ؛ وفى التيار النفسى الجارى فيها أريحية وحلاوة، وفى حسه تركز وعمق . وإن الانسان ليسمع قوله :

لَقَد ساسَنا هذا الزمانُ سياسةً سُدًى ، لَمْ يَسُسْها قبلُ عَبدٌ مُجدَّع(٣)
تروحُ علينا كلَّ يومٍ وتغتدِى خطوبٌ كأن الدهرَ منهن يُصْرَعُ
حلَتْ نُطَفٌ منها لِنكسٍ وذو الحِجا يُدَافُّ له سُمٌّ مِنَ العيشِ مُنْقَع(٤)

(١) المعنق كمحسن : ما طال وارتفع من الأرض .

(٢) كل هذه أسماء بلاد بالناحية كانت بها وقائع . وبالديوان والبيات ، بالنباء . ولم أجدها فى كتب الجغرافيا القديمة . لكن هناك البيار بالراء . يقول عنها ياقوت : " مدينة لطيفة من أعمال قومس " ويقول أبو الفداء فى تقويم البلدان ، عن قومس : " صقع كبير فيه بلاد كثيرة وقرى . وهو بين خراسان وبلاد الجبل ... ومن مدنه بسطام وبيار " .

(٣) مجدع كمعظم : مقطوع الأذنين . (المحيط) (٤) الدوف : الخلط والبل بالماء ونحوه .

فيدرك أىّ رجل غدا أبو تمام، ويعلم فرق ما بين هذا البلاء للدنيا، الخالقِ لاطمئنان إلى أحداثها، شبيهٍ باليأس، وبين قوله أيام نزوحه فى حداثته عن مصر:

فقنّعنى يأســى وأعــلمُ أننــى مَقُــودٌ بحبــلٍ للمقــاديرِ مُــدْمَجِ

ويعرف كيف آستحالت نظراته فى فنه، من تخطفات ولمحات عاجلة للاشـياء، إلى تأملات طويلة تُجتذَب من أصول الحياة آجتذابا، يقصد فيه إلى أغزر ما فى الوجود من معان. وتأمل إخراجه هذا المعنى القريب إلى الناس جميعا، ومن أين أخذ تشبيهه، وأى علاقة ربط بها المعنى والصورة:

لقد آسف الأعداءَ مجدُ آبن يوسفٍ وذو النقص فى الدنيا بذى الفضلِ مُولَعُ
أخذْتُ بحبــلٍ منــهُ لمّا لَوَيتُــهُ عــلَى مِرَدِ الأيامِ ظلّتْ تَقَطَّعُ[1]
هو السيل إن واجهتَه آنقدْتَ طوعَهُ وتقتــادُهُ مِــنْ جانبَيْــه فيَتْبَــعُ

وإن هــذا التساند بين الأبيــات، وعلاقة بعضها ببعض حتى ليكمل أحدها معنى الآخر، مع تلك المراعاة الصادقة لفصل كل بيت عن الآخر فصلا تاما تبعــا للتقليد الشعرى العربى، إن هذا يُرِى مبلغ نظر أبى تمام إلى فنه، ويبين عن مقدار تطور هذا الفن بعد رجعته من خراسان إلى آخر أيامه.

كان لكل رحلة من رحلات أبى تمــام أثر واضح فى شعره. ولقد تتبعت فى تاريخ حياته كل تطوّر هام فى شعره، وقصدت إلى أن أنبه عليه فى وقتــه. فقلت إنه بدأ يتحدّث عن الرحلات فى شعره الذى قاله بعد خروجه من مصر، وقلت إنه بدأ يصف الحرب والجيوش لمــا نزل العراق وأذربيجان منذ سنة ٢١٤، وأنا قائل الآن إنّ ســنة ٢٢٠ وما بعدها من حياته، هى السنين التى يبدو فيها خصب أبى تمــام النفسى بأجلى ما ظهر فى شعره طول حياته. أما مظاهر هذا الخصب النفسى فقد نبهت عليها قبيل هذا. وسأنبه عليها كلما وُجد مجال لذلك التنبيه.

١٣ — نهاية أمر الخرّمية

١ — الآستيلاء على البذ: فى سنة ٢٢٢ فتحت البذ، مدينة بابك، ودخلها المسلمون، وخربوها وآستباحوها، وذلك لعشر بقين من رمضان.

وفى هــذا الفتح كان مع الأفشين، جعفر الخياط، وكان أوّل من آشتبك مع الخرمية على باب مدينتهم، وساعده فى ذلك جماعة من المطوّعة، تحت إمرة أبى دُلَف العجلىّ، ممدوح أبى تمام.

(١) المرة: بالكسر القوة، وطاقة الحبل: جمعها مرر وأمرار.

يقول ابن الأثير عنهم : « وقد تعلقوا بالبذ وأثروا به أثرا ، وكادوا يصعدونه فيدخلون البذ » . ولم يساعدهم الأفشين فى هذا اليوم ، لما كان يعلم من كمين الخرمية لهم ، ولكنه كان لا يعرف أين كان ذلك الكمين ، فكان يصابرهم ليعرفه .

ولما جاء موعد الهجوم على البذ ، رتب الأفشين قواده ، بحيث كان تل البذ محاصرا من كل مكان ، ثم هاجم المدينة بقواده الأربعة . فكان جعفر مما يلى الباب ، و إلى جانبه أبو سعيد ؛ ودارت الحرب واشتد الضيق بمن فى المدينة ، وطلب بابك أمان أمير المؤمنين ، ولكنه طلب التأجيل إلى الغد ، فنصحه الأفشين بأن يكون ذلك اليوم ، وأن يرسل الرهائن ، فقبل . و بينما الأفشين فى تلك المفاوضات إذ أتاه الخبر أن طلائع عسكر المسلمين قد دخلوا المدينة ، وأنهم يحاصرون بابك فى قصر من قصوره . "فركب وصاح بالناس ، فدخل ودخلوا معه ، وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك ، وكان قد كمن فى قصوره ومعه ستمائة رجل ، فخرجوا على الناس فقاتلوهم ، ومر بابك حتى دخل الوادى الذى يلى هشتادسر . واشتغل الأفشين ومن معه بالحرب على أبواب القصور ، فأحضر النفاطين فأحرقوها ، وهدم الناس القصور ، فقتلوا الخرمية عن آخرهم . وأخذ الأفشين أولاد بابك وعياله ... وأما بابك فأنه سار فيمن معه . وكتب الأفشين إلى ملوك إرمينية وبطارقتهم يعلمهم أن بابك قد هرب وعدة معه ، وهو مار بكم . وأمرهم بحفظ نواحيهم ولا يمر بهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه .

وجاءت جواسيس الأفشين إليه فأعلموه بموضع بابك . وكان فى واد كثير الشجر والعشب ، طرفه بأذربيجان ، وطرفه الآخر بإرمينية ، ولم تكن تستطيع الخيل نزوله ، ولا يرى من يستخفى فيه ، لكثرة شجره ومياهه ... فوجه الأفشين إلى كل موضع فيه طريق إلى الوادى جماعة من أصحابه يحفظونه " .

ولكن بابك تمكن من الإفلات من ذلك الوادى ، وأخذ معه أمه ومعاوية الذى مر ذكره ، فسار على وجهه فى جبال إرمينية . يقول ابن الأثير : " وكان بطارقة إرمينية قد تحفظوا بنواحيهم ، وأوصوا ألا يجتاز بهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه . وأصاب بابك الجوع ، فرأى حرثا فى بعض الأودية ، فقال لغلامه : انزل إلى هذا الحراث ، وخذ معك دنانير ودراهم ، فإن كان معه خبز فاشتر منه . وكان للحراث شريك قد ذهب لحاجة ، فنزل الغلام إلى الحراث ليأخذ منه الطعام ، فرآه رفيق الحراث ، فظن أنه يأخذ ما معه غصبا ، فعدا إلى المسلحة ، وأعلمهم أن رجلا عليه سيف

وسلاح، قد أخذ خبز شريكه . فركب صاحب المسلحة، وكان فى جبال آبن سُنْباط، فوجه إلى سهل آبن سنباط فركب فى جماعة، فوافى الحراث والغلام عنده، فسأل عنه، فأخبره الحراث خبره، فسأله . فأخبره الغلام عن مولاه ودله عليه . فلما رأى وجه بابك عرفه، فترجل له وأخذ يده فقبلها، وقال : أين تريد ؟ قال : بلاد الروم . قال : لا تجد أحدا أعرف بحقك منى، وليس بينى وبين السلطان عمل، وكل من ههنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك ... نخدعه آبن سُنْباط حتى صار إلى حصنه . وأرسل بابك أخاه عبد الله الى حصن آصطفانوس، فأرسل آبن سُنْباط إلى الأفشين يعلمه بذلك . فكتب إليه الأفشين يعده و يمنيه، ووجه إليه أبا سعيد (محمد بن يوسف الثغرى) وآخر، وأمرهما بطاعة آبن سنباط . وأمرهما آبن سنباط بالمقام فى مكان سماه، وقال : لا تبرحا حتى يأتيكما رسولى، فيكون العمل بما يقول لكما . ثم إنه قال لبابك : قد ضجرت من هذا الحصن، فلو نزلت إلى الصيد؟ ففعل . فلما نزل من الحصن أرسل آبن سنباط الى أبى سعيد ورفيقه، فأمرهما أن يوافياه : أحدهما من جانب وادٍ هناك، والثانى من الجانب الآخر . ففعلا ... فبينما بابك وآبن سنباط يتصيدان، إذ خرج عليهما أبو سعيد وصاحبه فى أصحابهما، وعلى بابَك دُرَّاعة بيضاء، فأخذوهما ... وأركبه أبو سعيد، وساروا به إلى الأفشين، وسير معه سهل بن سُنْباط آبنه معاوية، فأمر له الأفشين بمائة ألف درهم، وأمر لسهل بألف ألف درهم، ومنطقة مغرقة بالجواهر وتاج البطرقة ... وكتب إلى المعتصم بذلك، فأمره بالقدوم به عليه . وكان وصول بابك إلى الأفشين ببَرْزَنْد، لعشر خلون من شوّال سنة ٢٢٢ " .

* * *

قد أكون أسهبت فى ذكر ما كان فى هذه المعركة، ولكن ذلك شىء لا بد منه . فكل خطوة من هذه الخطوات مذكورة فى شعر أبى تمام . ولقد مدح أبو تمام ممن آشتركوا فى هذه المعركة أبا سعيد الثغرى . وفى مدحه له ما يفيد أنه هو الذى أخذ بابك، فلو لم يفهم أنه هو الذى تسلم بابك من آسريه بنى سنباط، لَعُدَّ أبو تمام مغاليا، أو ظهر بمظهر من لم يفهم الأحداث التى كانت تجرى حوله .

آتصاله بأبى دُلَف العجلى :

وممن مدحهم من قوادها أيضا، أبو دلف العجلى . وقد رأينا كيف كان على رأس المتطوّعة . وكان يقيم تارة بالجبال، وتارة بالعراق . يذكر ياقوت فى كلامه على مادة " الجبال " أن أبا دلف العجلى قال :

وإنى امرؤ كسروىُّ الفعال أَصيفُ الجبال وأَشتو العراقا
وألبس للحرب أثوابها وأعتنق الدارعين العتاقا

وإنما آختار أبو دلف ذلك ، ليسلم من سمائم العراق وذبابه ، وهوامّه وحشراته ، وسخونة مائه وهوائه . وآختار أن يشتو بالعراق، ليسلم من زمهرير الجبال ، وكثرة ثلوجه ... وبلغ هذان البيتان إلى عبد الله بن طاهر، وكان سيئ الرأى فى أبى دلف ... فقال أبياتا أولها :

ألم تر أنّا جلبنا الخيول إلى أرض بابلَ قُبًّا عِتاقا

وختامها :

وأنت أبا دلف ناعمٌ تَصيفُ الجبال وتشتو العراقا

فلما وقف أبودلف على هذه الأبيات آلى على نفسه لا يصيف إلا بالعراق، ولا يشتو إلا بالجبال...وقال :

ألم تَرَنى حين حالَ الزمانُ أصيفُ العراقَ وأشتو الجبالا
سُمومُ المَصيفِ، وبردُ الشتاءِ حَنانَيْكِ حالا أزالَتْكِ حالا
فصبرا على حَدَثِ النائباتِ فإنّ الخطوب تُذِلّ الرجالا

ولا نعلم أقال أبو تمام قصائده فى أبى دلف فى العراق ، أم فى الجبال ، أم فيهما جميعا . غير أنه يشير إلى وقائع بابك فى شعره فيه . يقول فى قصيدته :

عَلَى مِثلها مِن أَربُعٍ وملاعِبِ أَذِيلت مَصُوناتُ الدموعِ السّوافِكِ

مخاطبا أبا دلف :

وقد علم الأفشينُ وهو الذى به يُصان رداءُ المُلْكِ عن كل جاذِب
بأنك لمّا آستخذل النصرُ واكتسى أَهابَ تُسفَى فى وجوه التجارب
تجلّلتَهُ بالرأى حتى أريتَه به مِلْءَ عينيه مكانَ العواقب
بأرشقَ إذ سالت عليهم غمامةٌ جرت بالعوالى والعتاقِ الشوازب

وأخرى مطلعها :

أمّا الرسومُ فقد أَذْكرْنَ ما سلفا فلا تُكَفَّنَّ من شَأْنَيْكَ أَو يَكِفا

يقول فيها :

إن الخليفة والأفشينَ قد علما من آشتفى لهما من بابكَ وشفا
فى يوم أَرشق والهيجاءُ قد رشقت من المنيةِ رشقا وابلا قَصَفا

obeikandl.com

ومنها يصف هرب بابك :

ومرَّ بابكُ مرَّ الريح منجذبا مُحْلَوْلِيًا دمَهُ المعسولَ لو رَشفا

ومنها :

وغَيْضَةُ الموتِ أعنى البذ قدت لها عرمرما لحزون الأرض معتسفا
كانت هى الوسطَ الممنوعَ فاستلبَتْ ما حولها الخيلُ حتى أصبحت طَرَفا
فظلَّ بالظفَرِ الأفشينُ مرتديا وظلّ بابكُها بالذل مُلْتحفا

ومنها البيت الذى يضرب به ابن الأثير مثلا فى حسن التقسيم، وهو فى وصف الرماح :

مثقفات سلَبْن الرومَ زُرقتها والعُرْبَ سُمرتها والعاشقَ القَضَفا

وكان أبو دلف كريما مشهورا بكرمه، شجاعا تتمثل فيه صورة العربى بإبائه وأنفته . فنال منه أبو تمام كثيرا. يقول صاحب الأغانى إنه أعطاه خمسين ألف درهم، وهو يعتذر إليه، لما أنشده قصيدته :

على مِثْلها مِن أربُعٍ وملاعِبِ أُذيلت مَصوناتُ الدموعِ السواكِبِ

وكان الأفشين يحسده لحسن سيرته مع عروبته . وقد رأينا قبلا ما كان من كراهة عبد الله ابن طاهر له . ولقد احتال له الأفشين يوما حتى شُهِد عليه بخيانة وقَتْلٍ، وكاد يقتله، لولا أن بلغ الخبر أحمد بن أبى دواد القاضى، فركب فى وقته مع من حضر من عُدُولِه، فدخل على الأفشين، وقد جىء بأبى دلف ليقتل، فوقف ابن أبى دواد ثم قال : إنى رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدَثا حتى تُسلمه إلىّ . ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أنى أديت الرسالة إليه من أمير المؤمنين والقاسم على قيد الحياة ... وخرج . فلم يقدر الأفشين عليه . ثم أبلغ ابن أبى دواد الخبر إلى المعتصم، معلما إياه أنه قام بهذا العمل رغبة منه فى إنقاذ أبى دلف قبل أن يفوت الوقت فسُرَّ المعتصم . وفى هذا قال أبو تمام شعرا يهنئ أبا دلف بسلامته من الأفشين أوله :

قد شرَّد الليلَ هذا الصبحُ عن أُفُقِهْ وسوَّغ الدهرُ ما قد كان من شَرَقِهْ

والقصة كما يتبين فيها من اجتماع أحمد ابن أبى دواد، والخليفة، والأفشين، وأبى دلف فى مكان واحد، يغلب أن تكون وقعت فى سر من رأى .

(ج) اتصاله بجعفر بن دينار :

وممن مدحهم أبو تمام من قوّاد هذه المعركة أيضا، جعفر بن دينار الخياط . ومن قوله فيه :

شجِى فى الحشا تَردادُه ليس يفتُرُ به صُمِنَ آمالى وإنّى لمُفْطِرُ

حَلَفتُ بِمُستَنِّ المُنَى تسترشُهُ سحابةُ كفٍّ بالرغائبِ تُمطِر
إذا درجَت فيه الصَّبا كفكفَتْ لها وقام يباريها أبو الفضل جعفر
تفاخرتِ الدنيا بأيام ماجدٍ به الملكُ يَهمى والمفاخر تفخر
فتًى من يديه البأسُ يضحك والندى وفى سَرْجه بدرٌ وليثٌ غَضَنفر

(د) اتصاله بالأفشين :

صدر أمر الخليفة، بعد أخذ بابك، إلى الأفشين بإحضاره إلى سُرَّ مَنْ رَأَى . وكان الخليفة قد بدأ بناءها سنة ٢٢٠ ؛ وأبو تمام فى غيبة عنها بخراسان ، أول الأمر ، ثم بالثغور بعد ذلك ، يشهد حرب بابك ، ويجد فى ذلك الهول البالغ ، والأحداث العارمة غذاء لشاعريته ، ومددا يستمد منه موضوعات شعره . فلما أُمِر الأفشين بالرحيل إلى سر من رأى، سار إليها، تخب ركابُهُ بأخطر ثائر عرفه ذلك العصر ، ظل ممتنعا فى جبله اثنين وعشرين عاما . يقطع الطريق، ويسلب الناس ويقتلهم، ويسبي نساءهم . يقول ابن الأثير : "وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان . وغلب من القواد يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد ابن أبي خالد، وأحمد بن الجنيد فأسره، وزريق بن على بن صدقة ، ومحمد بن حُميد الطوسى ، وإبراهيم بن الليث . واستنقذ ممن كان فى يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان .

ولما وصل الأفشين، توجه المعتصم، وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف يفرقها فى عسكره، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه" ولقد كان وصول الأفشين سنة ٢٢٣ . ويزيد الطبرى أنه ممن دخل عليه ، أبو تمام فمدحه بقصيدته النونية :

بِذِّ الجِلادُ البِذَّ فهو دفينُ ما إنْ به إلَّا الوحوشُ قطينُ
لم يُقْبَرَ هذا السيفُ هذا الصبرَ فى هيجاءَ إلَّا عزَّ هذا الدينُ

ومنها يذكر بابك :

لاقاكَ بَابَكُ وهو يزأرُ وانثنى وزئيره قد عادَ وهو أَنينُ

ويقول مشيرا إلى محاولته الهروب إلى بلاد الروم :

ورجا بلادَ الروم فاستعصى به أجلٌ أصُمُّ عن النَّجاءِ حرونُ
هيهات لم يعلم بأنك لو تَوَى بالصينِ لم تبعدْ عليك الصينُ

ما نال ما قـد نال فرعـونٌ ولا هامانُ فى الدنيـا ولا قارون
بل كان كالضحاكِ فى سطواتِهِ بالعالمين وأنت أفريدون

وفى البيت الأخير أثر من الأساطير الخرافية الفارسية، يبدو فى شعر أبى تمام العربى قبل أن يصوغ فارسىّ الشاهنامة شعرا . وفى هذه الاستفادة الدائمة من أساطير الماضين، ما يشبه ماجدّ بعد ذلك بقرون طوال فى أوربا، من محاولات آستغلال الأساطير اليونانية فى الشعر الأوربى؛ وما يجعل للشرق حق السبق إلى هـذه الصبغة الفنية للشعر . كما أن فى تشبيه أبى تمام الأفشين بأفريدون — بعد معرفة طريقـة أبى تمام فى آستخلاص قضاياه وتشابيهه من الواقع دائما — ما يقطع فى ذلك الآضطراب القائم حول جنس الأفشين، أفارسى هو أم تركى . فالأفشين لاشك فارسى الجنس، وكذلك كان بابك الخرمى .

ومن هذا نفهم أن أبا تمام نزل سنة ٢٢٣ سر من رأى، وكأنه رجع مع الجيوش لما رجعت من حرب بابك، فشارك الشعراء فى مدح الأفشين .

(هـ) مدح أبى تمام للمعتصم :

وفى هذه المرة مدح المعتصمَ بقصيدته :

فَـوالكَ عينٌ على نجـوالك يا مَـذِلُ حتّـامَ لَا يتقضّى قـولُك الخطـلُ
وإنّ أسمـجَ من تشكو إليه هوى من كان أحسنَ شيءٍ عنده العـذلُ

" حدّث الحسن بن وهب قال : قلت لأبى تمـام : أفهم المعتصم بالله من شـعرك شيئا ؟ قال : استعادنى ثلاث مرات :

وإنّ أسمـج من تشكو إليه هـوى ... ... البيت

وآستحسنه ثم قال لآبن أبى دواد : يا أبا عبد الله ! الطائى أشبه بالبصريين منه بالشآميين " .

وفى الصـولى ما يمكن أن يفهم منه أن أبا تمـام لم يتصل بالمعتصم إلا فى المصّيصة، فى حرب عمورية) وقد ذكرت ذلك قبـلا . فإن المعتصم قال لآبن أبى دواد ، لمـا ذكر له أبا تمام بعـد الرجوع من عمورية : أليس الذى أنشدنا بالمصّيصة ، الأجش الصوت ؟

ولكن هـذا الخبر لا يقطع بأن مقابلة المصّيصة كانت فى غزوة عمورية أو بعدها أو قبلها ، كما أنّ جعل هذه المقابلة أوّل مقابلة لهما، لايستند إلى شىء أكثر من أن المعتصم قد ذكرها فى حديثه لآبن أبى دواد . وليس هناك مايمنع أن يكون رآه قبلها، فلما ذكّر به هذه المرة لم يذكر إلا مرة المصيصة .

وفوق هذا فإن لأبى تمام قصيدة يمدح فيها المعتصم، ويذكر فيها أخذ بابك، وقتله فى سامرا سنة ٢٢٣، ولا يشير فيها أية إشارة إلى غزو المعتصم عمورية مما يدل على أنها قيلت قبل عمورية .

أما الذى جعلنى أقدم هذه القصيدة على قصائده فى المعتصم فتلك قصته حين نزل بغداد فدخل الجامع، وكان به من الشعراء على بن الجهم، وأحمد بن أبى فنن، وابن أبى الشيص، وكانوا يتناشدون الأشعار بعد صلاة الجمعة . فأنشدهم هذه القصيدة من قصائده فى المعتصم ولم ينشدهم غيرها، مع أن له فى المعتصم خيرا منها، ولكنه لم يكن قال فيه غيرها .

ويقول ابن أبى الجهم فى القصة: إن هذا كان أول ما عرفوا أبا تمام. ويصوره لنا ابن الجهم أسمر طويلا يتزيا بزى الأعراب . وقد عاب عليه ابن أبى الشيص قوله :

* حتى ظننتُ قوافيه ستقتتل *

بتسكين الياء فى " قوافيه " .

عاد بعد ذلك أبو تمام الى سامرا، وكان بابك قد قتل . يقول ابن الأثير : إن المعتصم أمر السياف أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما، فسقط . فأمره بذبحه، ففعل، وشق بطنه، وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرا . فقال أبو تمام قصيدته :

آلتْ أمورُ الشِّركِ شرَّ مآلِ ... وأقرَّ بعدَ تَخَمُّطٍ[1] وصيالِ

غضب الخليفةُ للخلافة غضبة ... رخُصتْ لها المُهَجاتُ وهى غوالِ

لما انتضى جهلَ السيوفِ لبابكٍ ... أغمدْنَ عنه جهالةَ الجُهّالِ

فلأذربيجانَ اختيالٌ بعد ما ... كانت مُعرَّسَ عبرةٍ ونكالِ

والقصيدة مَثَلٌ من أسمى ما بلغ إليه فن القصص الشعرى فى العربية . فهو يذكر فيها قصة ثورة بابك من يوم اتصل بها، وهزائمه، ومراعه فى أرشق، ومُوقان، وما كان بالبذ، ومحاولته الهرب، وكيف أوقعه أجله الدانى . وهو لا ينسى صغيرة، ولا كبيرة، ولا يكذب ولا يغلو . وإن الإنسان ليجده يسير فى حدود ما ذكره التاريخ . ولكنه يغمر الأحداث بفيض حسه، ويفهمه خفايا النفس، ويُعمل خياله فى الإبراز للوقائع ولكنه لا يغير حقيقتها . وأرى أن الرجوع الى القصيدة للمقارنة بينها وبين التاريخ هو خير ما يعمل فى مثل هذه الحال .

(١) تخمط : تكبر وغضب .

١٤ — موقعـــة عمّـــورية

(ا) تنكيل توفيل بأهل زِبَطْرة : و بينما كان أبو تمام فى بغداد سنة ٢٢٣ يمدح الخليفة، ويجد فى أحداث بابك مادة لشعره، جدَّ على أطراف الدولة فى الثغور حادث جَلَل، أثار المعتصم، وحرّك بنفسه حب الانتقام له . ذلك هو أن توفيل بن ميخائيل، ملك الروم، خرج بجيش ضخم إلى بلاد المسلمين، فأوقع بأهل زبطرة وغيرها . يقول ابن الأثير "فخرج توفيل فى مائة ألف، وقيل أكثر . منهم من الجنـد نيّف وسبعون ألفا ، و بقيتهم أتبـاع . ومعهم من المحمّرة ، الذين كانوا خرجوا فى الجبال، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب، جماعة . فبلغ زبطرة، فقتل من الرجال، وسبى الذرّية والنساء، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين، وسبى المسلمات، ومثّل بمن صار فى يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع أنوفهم وآذانهم . فخرج إليه أهل الثغور من الشأم والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح" .

(ب) ثورة الرأى العام الإسـلامى : ويقول المسعودى « فضج الناس فى الأمصار ، وأستغاثوا فى المساجد والديار . فدخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم فأنشده قائمـا قصيدة طويلة يصف فيها ما نزل (بالناس) ويحثه على الجهاد فيها :

يا غارةَ اللهِ قـد عاينْتِ فآنتهِكى ... هتك النسـاءِ وما فيهِن يُرْتكَبُ

هبِ الرجالَ على أجرامِها قُتِلتْ ... ما بالُ أطفالِهـا بالذبح تنتهب

(ج) خروج المعتصم بنفسـه : ويقول ابن الأثير " و بلغه أن امرأة هاشميـة صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم : وا معتصماه ! فأجابها، وهو جالس على سريره : لَبّيكِ . لَبّيكِ . ونهض من ساعته وصاح فى قصره : النفير النفير . ثم ركب دابته، وسمّط خلفه شِكالا، وسكة حديد، وحقيبة فيها زاده . و بلغ من ثورة نفسه وعزيمته على التضحية أنه آستحضر القضاة والشهود، فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله أثلاثا : ثلثا لله تعالى، وثلثا لولده وأقاربه، وثلثا لمواليه" .

يقول المسعودى " خرج المعتصم من فوره نافرا وعليه دُرّاعة بيضاء من الصوف، وقـد تعمّم بعمامة الغزاة، فعسكر غربى دجلة . وذلك يوم الاثنـين لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٢٢٣، ونصبت الأعلام على الجسر، ونودى فى الأمصار بالنفير مع أمير المؤمنين، فسارت إليـه العساكر والمطوّعة من سائر بلاد الاسلام" .

فى هذا كله ما يُرى مبلغ ما كان لغارة توفيل البربرية على المسلمين فى ديارهم من أثر فى نفوس الناس يومئذ . وفى وصف التاريخ لنفرة المعتصم ، وٱضطراب الأقطار الإسلامية لهذا الخطب ، ما يجعلنا نحس مدى ٱنفعال النفوس بهذا الحادث ، ومقدار ما أحفظها على من لم يرع فى غارته حرمة النساء ، ولا براءة الأطفال .

(د) فتح عُمورية : و بمثل هذا الحقد جرّد المعتصم جيوشه ، و به ٱجتاح دروب الروم ، وداس قراها فى آسيا الصغرى ، وسار أبو تمام فى صحبته كما يقول صاحب الفخرى ، و بنفسه من الحقد ما بكل مسلم . وكان على مقدّمته أشناس ، يتلوه محمد بن إسحق بن مصعب ، (أحمدِ ممدوحى أبى تمام) وعلى القلب عُجَيف بن عنبسه . فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن ؛ وهو على سلوقية قريبا من البحر ، بينه و بين طَرَسُوس يوم . وأمضى المعتصم الأفشين إلى سروج ، وأمره أن يدخل من درب الحدث ليوقع بتوفيل ، طاغية الروم ؛ وكان قد زحف فى جيش ضخم لما سمع بخروج المعتصم فهزمه الأفشين[1] .

وكان أهل أنقرة قد أجلوا عنها لما سمعوا بقدوم المسلمين ، ودخل المسلمون من أماكن عدّة فأوقع ذلك الٱضطراب فى صفوف الروم . ودخل المعتصم أنقره ، وقدم عليه وهو فيها الأفشين ... وأمر المعتصم جنوده أن يحرقوا كل ما يصادفون من القرى . ثم سار حتى أناخ على عمورية ، فضربوا عليها الحصار . وكان بطريقها آسمه ياطس ، على أصح الأقوال ، وهو خال ملك الروم ، ومعه فيها تسعون ألفا .

و يقال إنه لما ٱعتزم فتحها قال له المنجمون : إنا نجد فى كتبنا أنها لا تفتح هذه الأيام ، فلم يعبأ بهم وسار إلى فتحها . وقد نمى إليه أن فى سورها مكانا ضعيفا ، فسلط منجنيقاته عليه ، واشتدّ الحصار على الروم ، وكانوا قد أرسلوا إلى ملكهم يطلبون نجدته . ولكن المعتصم أخذ رسلهم . فأرادوا خديعة المسلمين ، وتخذيلهم عنهم عسى أن يصل إليهم مدد . فبعثوا إلى المعتصم يقولون : إنا نرى فى كتبنا أن مدينتنا هذه ، لا تفتح قبل نضج التين والعنب ، وأنها لا يفتحها إلا أبناء زنا .

فضحك المعتصم وقال : أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سأفعله إن شاء الله ، وأما أنها لا يفتحها إلا أبناء الزنا ، فمعى من أبناء الروم الكفاية . وكان أن فتحها ، وأخذ ياطس بطريقها .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٥٨١ .

يقول ابن الأثير " وأخذ السيف الروم ، وأقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه ، فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف، ونقل من سواهم، وأمر ببيع المغانم فى مواضع ... ... وأمر بالباقى فأحرق " .

(هـ) بين قصيدة أبى تمام فى الفتح، وبين التاريخ : فى هـذه الموقعة التى عمل فيها الحقد عمله قال أبو تمـام قصيدته البائية :

السـيف أصـدقُ أنبـاءً مِن الكُتُبِ ... فى حـدّهِ الحـدُّ بين الجِـد واللعبِ
بِيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف فِى ... مُتُـونِهِنّ جَـلاءُ الشـك والرِيَبِ

ويظهر أنه قالها للمعتصم فى رجعته بعد فتح عمورية، فى المصيّصة . وتكون بذلك هى القصيدة التى كان ذكر للمعتصم موقف أبى تمـام فيها، لمـا ذُكِّر به، بعـد رجعته من عمورية إلى سُرَّ من رأى، كما مر فى حكاية الصولى . ولقد كان أبو تمام فيها كعادته فى شعره، يصف ما رأى بعينه، وما سمع بأذنه، ويجعل من فنه خادما للواقع من غير خروج عليه، أو تزييف فيه . فأنت لا تكاد تبحث عن حادثة من هـذه الحوادث التى ذكرتها فيما مضى نقلا عن التاريخ إلا وجدتها فى القصيدة ، محكيـة فى أجمـل أسلوب وأروع عبارة . ولقـد رأينا فى الاستفتاح إشارته إلى قول المنجمين ، وسخريته مما وجدوا فى كتبهم ، وقوله : إنما يجلو الأمر ويذهب الشك ضوء السيف :

أيـن الروايةُ بل أين النجـومُ وما ... صاغوه من زُخْرُف فِيهـا ومِن كذبِ
تخـرُّصًا وأحاديثـا مُلفَّقـةً ... ليست بِنبـع إذا عُدّت ولا غَرَبِ
عجائبـا زعمـوا الأيامَ مُجفِـلةً ... عنهنّ فى صـفرِ الأصـفارِ أو رجبِ
وصـيّروا الأبرُجَ العليـا مرتبـةً ... ما كان منقلبا أو غـيرَ منقلِبِ
وخـوّفوا الناس مِن دهياءَ مظلمـةٍ ... إذا بدا الكوكبُ الغربىُّ ذو الذنبِ
يَقْضـون بالأمر عنهـا وهى غافلةٌ ... ما دار فى فَـلَكٍ منهـا وفى قُطُبِ
لو بيّنتْ قطُّ أمرا قبـلَ موقِعِـه ... لم يَخْفَ ما حَـلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

وإن أعرقنا اليوم فى الثقافة لا يقدر أن يسخر بالتنجيم أكثر مما سخر منه أبو تمـام فى شعره هذا، منذ نيف وعشرة قرون

وأغرب ما فى هذا الرجل هو آستغلال الواقع فى شعره ، آستغلالا يبعث فى النفس الدهشة ، ويساعد المحقق التاريخى أثمن مساعدة . فإن هذا " الكوكب الغربى ذا الذنب " الذى يتحدّث عنه أبو تمـام فى شعره قد ظهر قبل فتح عمورية . يقول آبن الأثير فى ذكره حوادث سنة ٢٢٢ :

" وفيها ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقى يُرَى نحوا من أربعين ليلة ، وله شبه الذنب . وكان أول ماطلع نحو المغرب ، ثم رئى بعـد ذلك نحو المشرق . وكان طويلا جدا ، فهال الناس وعظم عليهم . ذكره آبن أبى أسامة فى تاريخه ، وهو من الثقات الأثبات " .

وفى تاريخ موقعـة عمورية فى آبن الأثير والطبرى آختلاف . فكلاهما يقولان إنهـا وقعت سنة ٢٢٣ ، ثم يعقبان على ذلك بأن هناك من قال إنها كانت سـنة ٢٢٤ ، فإذا نحن أخذنا ما يقول أبو تمـام عن تخويف المنجمين للمعتصم من الخروج ، لظهور هـذا الكوكب ، أو لقرب ظهوره ، وأضفنا إليه أيضا ما يفهم من كلام الطبرى وآبن الأثير عن بابَك : ذلك أنه لمـا آشتد عليه الحصار سنة ٢٢٢ فى البذ ، كتب إلى ملك الروم أن يهاجم المسلمين لمـا أخبره من شُغل جنودهم به ، فإن الخليفة "قد وجه عساكره ومقاتلته إليه ، حتى وجّه خياطه ، يعنى جعفر بن دينار الخياط ، وطباخه ، يعنى إيتاخ ، فان أردت الخروج إليه فليس فى وجهك أحد يمنعك " . " وكان بابَك يرجو من ذلك ان يتحرّك ملك الروم فيكشف عنه المسلمين شيئا" . وكان أن هاجم توفيل بجيشه زِبَطْرة .

ثم مايقولانه فى مكان آخر عن المعتصم ، من أنه لمـا فرغ من أمر بابك ركب إلى بلاد الروم ، إذا ذكرنا ذلك ، أمكننا أن ندرك منه كله ، وبفضل بيت أبى تمـام ، أن هجوم توفيل على زبطرة ، كان أقرب ما يمكن إلى أخذ بابك . وأن المعتصم أراد السـير إلى بلاد الروم لخذله المنجمون لتشاؤمهم بظهور ذلك النجم ذى الذنب ، فلم يعبأ بهم وسار ففتح عمورية فى ٢٢٣ ، بعـد أن أعدّ جيوشه . ولو كان تأخر حتى سنة ٢٢٤ لمـا كانت هناك داعية لذكر أبى تمـام هذا الكوكب فى شعره ، والهزء من المنجمين ، ما دام الخليفة قد نزل عند رغبتهم فتأخر عن غزاته تجنبا لعاقبة ما تشاءموا منه .

ويقول مشيرا إلى موقعة أنقرة التى سبقت فتح عمورية :

جرى لهـا الفألُ نَحْسا يوم أَنْقِـرةٍ ... إذ غودِرتْ وَحشةَ الساحاتِ والرُّحَبِ
لمّـا رأت أختهـا بالأمسِ قد خربتْ ... كان الخرابُ لهـا أعدى مِن الجربِ

ثم يقول فى وصف الحريق مخاطبا المعتصم :

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بِها للنار يوما ذليلَ الصَّخْرِ والخشبِ

الأبيات ... ...

و يقول مشيرا إلى حادث الهاشمية التى نادت : "وا معتصماه !" لما أُسرت :

لَبَّيْتَ صوتا زِبَطْرِيًّا هَرَقتَ له كأسَ الكَرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

و يقول اليعقوبى فى الكلام على هذه الموقعة : إن ملك الروم لما عرف مقصد المعتصم عمورية " أوفد من قبله وفدا إلى المعتصم يقول : إن الذين فعلوا بزِبطرة ما فعلوا تعدّوا أمرى . وأنا أبنيها بمالى ورجالى، وأرد من أُخِذ من أهلها، وأخلى جملة من فى البلد للروم من الأسارى، وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة " ولكن المعتصم لم ينسه كل ذلك ما أتى من أجله فيقول أبو تمام :

لمّا رأى الحربَ رأىَ العين تَوْفَلِسٌ والحربُ مشتقة المعنى من الحَرَبِ

غدا يُصَرِّفُ بالأموال خِزْيَتَها فعزَّه البحرُ ذُو التيارِ والعَبَبِ

هيهاتَ زُعزعتِ الأرضُ الوقورُ به عن غزو محتسبٍ لا غزوِ مُكتسِب

لم ينفقِ الذهبَ المُرْبِى بكثرته على الحَصَى وبه فقرٌ إلى الذهب

و يقول مشيرا الى عدد من كان بعمورية من الرجال، وما كان من قولهم إن مدينتهم لا تفتح قبل نضج التين والعنب :

تسعونَ ألفًا كآسادِ الشَّرى نَضِجتْ جلودهم قبلَ نُضْجِ التينِ والنَعِبِ

ولقد عاب بعضهم على أبى تمام ذكره التين والعنب فى الشعر، وقالوا ليس هذا من الألفاظ التى تستعمل فى الشعر، فرد عليهم آخرون بقولهم : إنهم لم يعرفوا أن هذا هو ماوقع، وليس خيالا من خيالات أبى تمام حتى يلام عليه .

وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ، تُرِى مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد على الواقع فى نظم شعره، وأن فنه إنما كان فى صياغة هذا الواقع صياغة شعرية ، فهو فى فنه أشبه بالقاص الذى يصف مارأى وما سمع .

(و) مدحه بعض القوّاد : لم يكن المعتصم وحده ممدوح أبى تمام فى عمّورية . فلقد كان معه فى هذه المعركة من قوّاده، أبو سَعيد محمد بن يوسف الثغرى صاحب أذربيجان ووقائع بابك .

وقد شارك أبو سعيد فى هذه الوقائع، ويظهر أنه كان فى جيش الأفشين كما كان أيام بابك . ولقد قلت من قبل إن الأفشين كان قد وُجِّه بجيشه للقاء توفيل، لمّا علم المعتصم بخروج ملك الروم بجيشه، فلقيه جيش الأفشين ومن قواده أبو سعيد، فهزمه وشتته وطارده طويلا . ثم عاد الأفشين بجيشه فلق المعتصم فى أنقره . ثم ذهبوا جميعا ففتحوا عمورية .

يمدح أبو تمام محمد بن يوسف الثغرى، فيذكر هزيمة توفيل ملك الروم سنة ٢٢٣، ومطاردة جيوش المسلمين له، وبلاء أبى سعيد فى هذه المواقع فى قصائد كثيرة، ولكنه لم يقلها جميعا فى هذه المرة . والقصيدة التى يغلب أن يكون قالها هذه المرة هى :

ما عهدْنا كذا بكاءَ المَشُوقِ ... كيفَ والدمعُ آيةُ المعشوقِ

ومنها :

رُمِيتْ مِن أَبى سعيدٍ صَفاة الر ... رُومِ جَمْعًا بالصَّيْلَمِ الخنفقيقِ[1]

* * *

فى كُماةٍ يُكْسَونَ نَسجَ السَّلوقِىِّ ... وتعدِو بهم كِلابُ سَلوقِ[2]

يتساقَوْنَ فى الوغى كاسَ موتٍ ... هى مَوْصولةٌ بكاسِ الرحيقِ

وَطِئتْ هامةَ الضواحى فلما ... أن قضتْ نَحبها مِن القيْذُوقِ[3]

ألهبتْها السياطُ حتى إذا استفـ ... ـت بإطلاقِها على البَاطلُوقِ

شنَّها شُزَّبا فلما استباحَتْ ... بالبقلاّرِ كلَّ سهلٍ ونيقِ

سار مستقدما إلى البأسِ يزجى ... رهجًا باسقا إلى الإبْسيقِ

وهو فيها يلعب بالبديع لعبا، ويروض أوابده ترويضا، فيجانس بين الأعلام الأعجمية والألفاظ العربية، ويكثر من الغريب إكثارا واضحا . ولا يعبأ أن يقرن فيها بين كلمات ذات حروف رقيقة مهموسة، وأخرى غليظة، تملأ الشدق حين ينطق بها . والقصيدة تمثل ذلك المعنى الذى يقولونه عنه من أنه كان ينصب القافية قبل أن يقول شعره، ثم يأخذ بعد ذلك فى تأليف قصيدته، فقد

(١) الصفاة : الصخرة . والصيلم : الأمر الشديد والداهية والسيف . والخنفقيق : السريع جدا .

(٢) سلوق كصبور قرية باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب، أو بلد بطرف إرمينية، أو إنما نسبتا إلى سلقية محركة : بلد بالروم . (المحيط) فهؤلاء الكماة يلبسون الدروع السلوقية، ويركبون خيلا تبلغ فى سرعة عدوها الكلاب السلوقية .

(٣) فى الديوان القيذوق بذاء وفى ياقوت القيذوق بالقاف، وينص على أنها موضع ورد فى شعر أبى تمام .

آختار أبو تمام قافية هذه القصيدة القافيّة لتوافقها مع بعض الأعلام التى أراد الحديث عنها كالإبسيق والباطلوق والساروق والقيذوق .

ولكن ألفاظها مع غرابتها وكثرة القاف فى قوافيها ، لا تنفر الأذن ، ولا يضيق بها سامعها أو قارئها ، وأن أحدنا ليتعقبها فى شغف بتعقبها ، وهو فيها يرق و يغلظ ، و يلين ويخشن ، والإنسان يحس ، بين رقته وخشونته جميعا ، شيئا من التلاؤم كثيرا ، أخاذا ، أشبه بذلك الحس الذى يجده فى سماع موسيق تختلف أصوات الآلات فيها رقة وخشونة ، ولكن بينها جميعا توافقا وفيها آنسجاما .

وهو فيها جارى الشعر ، طويل النفس ، فيه أريحية ينطبق عليها ما يقوله فى وصف قصيدة له :

فكأنما هى فى السَّماع جنادلٌ وكأنما هى فى القلوب كواكبُ

فمنها :

وقعةٌ زعزعتْ مدينة قُسْطَنـ ـطينَ حتى آرتجَّتْ بسوق فَرُوق
فوحقِّ القَنا عليه يمينا هى أمضى من الحسام العتيق
أنّ لو آنَّ الذراعَ شَدّت قُواها عَضُدٌ أو أُعين سَهمٌ بِفُوق
ما رأى قُفْلها كما زعموا قُفْـ ـلاً ولا البحرَ دُونَها بعميق

وكأنما أبو تمام فيها يعمد إلى الإكثار من ذكر الأماكن ولو كانت رومية كما كان الجاهليون يكثرون من ذكر الأماكن فى شعرهم . وهو يخت الألفاظ فيقول : مبطرق البطريق . وتجرى فيها جميعا حلاوة نفس ، وروح شعرى صحيح . يقول فى وصف أبى سعيد :

غيرُ ضَنْك الضلوع فى ساعة الرَّوْ عِ ولا ضيّقٌ غداةَ المَضيق
ذاهبُ الصوتِ ساعةَ الأمرِ والنهـ ـيِ إذا قلّ فيه هدرُ الفَنيق

* * *

ولقد رجحت أن تكون هذه القصيدة قيلت هذه المرة لخلوها من إشارة إلى بابك ، إذ قد شغل أبو تمام فيها بالحوادث التى تحوطه ، فتملأ دنياه ، وتستأثر بمشاعره ، عن أن يذكر غيرها . أما فى غيرها من القصائد فهو يخلط فى قصائده بين أعمال أبى سعيد فى حرب بابك ، وأعماله فى حرب الروم . وعلة ذلك عندى ، هو مضيها جميعا ، وآستواء أثرها فى نفسه ، بعد أن خلص من ملابسة أقربها لحياته .

* * *

يقول اليعقوبى "وفتحت عمّورية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة٢٢٣" ويقول ابن الأثير " وكان نزول المعتصم عليها لست خلون من شهر رمضان وأقام عليها خمسة وخمسين يوما " .

ولكن ما يقوله اليعقوبى صحيح . فان أبا تمام قد مدح أبا سعيد الثغرى عند خروجه إلى مكة بعد فتح عمورية بقصيدة مطلعها :

مَالِى بعاذلةِ الأيام من قِبَل لم يَثْنِ كيدَ النوى كَيدِى ولاحِيَلى

ذكر ذلك فى نسخة من ديوان أبى تمام استحضرتها الجامعة حديثا من الاسكوريال . وفى قطعة أخرى قالها أبو تمام فيه لهذه المناسبة يذكر عمه بخروجه يقول :

لَأُودِّعنَّك ثم تدمع مُقْلتى إنّ الدموع هى الوداعُ الثانى[1]

وأصوم بعدكَ عن سواك فأغتدِى متقلِّدًا صومين فى رَمضان

فكأن خروجه إلى مكة كان فى رمضان، وذلك بعد عمورية، وهو ما ينطبق على كلام اليعقوبى .

ومن قصيدتى أبى تمام فى خروجه إلى مكة يشعر الانسان أنه كان حزينا لفراقه، حزنا لم يخفف عنه منه اتصاله بالخليفة المعتصم . ولعل ذلك راجع إلى مايقوله الصولى عن أبى سعيد هذا، من أنه كان متصل العطاء وإن لم يكثر، وإلى أن صلة أبى تمام بالخليفة، رغم مدائحه فيه، لم تكن من القوة وإيثار الخليفة إياه بحيث تنسيه غيره، بل إنى لأكاد أظن أن اهتمام المعتصم به لم يكن يتناسب مع عدد قصائده فيه حتى هذا الزمن .

١٥ — عودة أبى تمام إلى سامرّا

(١) قوله فى ثورة العباس بن المأمون : انصرف المعتصم عن بلاد الروم راجعا إلى سامرّا، وفى ركبه أبو تمام . ويقول المسعودى : إنه كان يعتزم عبور الخليج، وفتح القسطنطينية هذه المرة، لولا أنه سمع أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر خلعه، وأن جماعة كبيرة من قواده بايعوه . فعاد وقبض عليه، وحبسه عند الأفشين، وقد مات العباس فى الطريق إلى سُرّمن رأى ودفن بمنبج .

وفى المِصّيصة قال أبو تمام فى المعتصم قصيدة أنشدها بين يديه، يغلب أن تكون هى بائيته التى فرغت قبلا من الحديث عنها . ولا أشك فى أن أبا تمام زار بلده هذه المرة فى رجعته مع المعتصم .

(١) ص ١٩٦ من الديوان .

فلما كان المعتصم بسامرّا ، لم يكن قد نسى ما كان من ابن أخيه العباس بن المأمون . يقول ابن الأثير "فسمى العباس يومئذ باللعين، وأخذ أولاد المأمون ... فحبسهم فى داره حتى ماتوا بعد".

ولقد دخل أبو تمام على المعتصم فى سامرّا بشعر مدحه به، قدّمه إليه القاضى أحمد بن أبى دواد، ويظهر أنه كان عرفه فى هذه الغزاة يقول الصولى : "فذكره ابن أبى دواد للمعتصم، فقال له : أليس الذى أنشدنا بالمصّيصة ، الأجش الصوت ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن معه راوية حسن النشيد . فاذن له، فأنشده راويته مدحه له . أما المدح الذى لم يسمّه فهو قصيدته :

أجَلْ أيها الربعُ الذى خفَّ آهلُه ... لقد أدركتْ فيك النوى ما تحاولُهْ
وقفتُ وأحشائى منازلُ للأسى ... به ، وهو قفر قد تعفّتْ منازله

ثم يمضى فيها، فيصف سفرته إلى سامرا، ثم يشير فى خفاء وخوف ورحمة، تتنازعه جميعا، إلى حادث أبناء المأمون، وما أصابهم بسبب خروج العباس أخيهم فيقول :

لقد خان من يُهدِى سُوَيداءَ قلبِه ... لحدِّ سنانٍ فى يد الله عاملُهْ
وكم ناكثٍ بالعهد قد نكثتْ به ... أَمانيه واستخذى لحقّك باطله
فأمكنتَهُ من ذمّة العفو رأفةً ... ومغفرةً إذ أمكنتْك مقاتله
لحاط له الإقرار بالذنب روحَه ... وجثمانَه إذ لم تَحُطْه قنابله
إذا مارِقٌ بالغدر حاول غدرَهُ ... فذاك حِرِىٌّ أن تئيمَ حلائله
فإنْ باشر الإصحارَ فالبيضُ والقنا ... قِراهُ ، وأحواضُ المنايا مناهله
وإنْ يَبْنِ حيطانا عليه فإنما ... أولئك عُقّالاتُهُ لا معاقله
وإلّا فأعلمه بأنك ساخط ... ودعه فإنَّ الخوفَ لا شك قاتله

فهو موزع بين رحمة يكنها لما أصاب أبناء المأمون، وخوف واضح أن يأخذه الخليفة بشفاعته لقوم يخافهم أشدّ الخوف على عرشه . فهو يلين فيها تارة ، ويشتدّ تارة ، ولكنه راجع الى طلب العفو أبدا ، وتركهم للخوف يقتلهم . وهى أوّل قصيدة نسمعه يتحدّث فيها عن رحمة الخليفة وعفوه ، فيطيل، ويبين عمن فهم لوظيفة الحاكم :

بمعتصمٍ بالله قد عُصمت به ... عُرَى الدينِ وآلتفّتْ عليه رَسائلُهْ
رَعى اللهُ فيه الرعيةَ رأفةً ... تُزايله الدنيا وليست تزايله
فأضحوا وقد فاضت إليه قلوبُهُمْ ... ورحمتُهُ فيهم تَفيضُ ونائله

وقام فقام العدلُ فى كل بَلدة خطيبا، وأضحى الملكُ قد شُقَّ بازله
وجرَّد سيفَ الحق حتى كأنه من السَّلِّ مُودٍ جَفْنُهُ وحمائله

وفيها هذا البيت الغريب، المنبى عن سخط خفىّ، قد يكون نتيجة الانفعال لما أصاب أبناء المأمون :

رَضينا على رَغْم الليالى بحكمه وهل دافعٌ أمرا وذو العرش قابله

والظاهر أن الخليفة لم يغضب من هذه الشفاعة، أو أنه لم يدرك ما قصد أبو تمام فيها.

يقول الصولى " فأمر له بدارهم كثيرة، وصكَّ ماله على إسحق بن إبراهيم المُصْعَبىّ. قال: أبو تمام: فدخلت اليه بالصكّ، وأنشدته مديحا له، فاستحسنه، وأمر لى بدون ما أمر به المعتصم"

أما القصيدة التى مدح بها إسحق فلم يقل الصولى عنها شيئا.

(ب) اتصاله بابن أبى دواد وابن الزيات : عرف أبو تمام القاضى أبا عبدالله أحمد ابن أبى دواد، كما رأينا، وقدمه هذا إلى المعتصم، وكان ابن أبى دواد عظيم المنزلة عند الخليفة. ومن قصة إنقاذه أبا دلف من يد الأفشين يمكن أن تعرف مروءته. وابن أبى دواد من الشخصيات العظيمة التى هى مفخرة من مفاخر التاريخ العربى. وفى ابن خلكان عنه الكثير، وكان عربيا، من قبيلة إياد. كان يبغض محمد بن عبدالملك الزيات، وزير المعتصم، وكان ابن الزيات أكثر بغضا له. ولقد خدم ابن أبى دواد المأمون قبل أن يخدم المعتصم. أما ابن الزيات فكان أحدث اتصالا بالخلفاء. فأول من استوزره المعتصم سنة ٢٢٠، بعد أن نكب وزيره الفضل بن مروان. وكان فى ابن أبى دواد رحمة، وكان ابن الزيات يرى أن الرحمة خور فى الطبيعة. فكان العداء بين الاثنين، عداء ما بين طبيعتين متنافرتين لا تتفقان.

وكان أبو تمام شاعرا فتعرف بهما جميعا، ومدحهما جميعا. ويغلب أن يكون تعرفه بابن الزيات قديما، أقدم بكثير من وزارته، فهو يقول له فى قصيدة يمدحه بها :

وَلِى همةٌ تُنضِى العصورَ وإنها كعهدك من أيام مصر لحَاملُ
سنونَ قطعناهُنَّ عَشْرًا كأنما قطعنا، لقرب العهد منها، مراحلُ

ففى قول أبى تمام لابن الزيات "كعهدك من أيام مصر لحامل" ما يدل على أنه عرفه من أيام مصر. وقد يكون ذلك فى مصر نفسها، أو فى العراق بعد رجعة أبى تمام من مصر مباشرة؛ وقد

عاد أبو تمام من مصر، كما رأينا قبلا، سنة ٢١٤ . فكأنه قال هذه القصيدة لابن الزيات سنة ٢٢٤، لما ذكره من مرور عشر سنوات على أيام مصر . وفى القصيدة ما يشتم منه أن أبا تمام كان يجد صعوبة كبيرة فى الاتصال بالخليفة، ليقول فيه شعره، برغم أنه كان قد اتصل به قبل الآن مرات. ويظهر أنه كان لجأ قبل أن يقول هذه القصيدة إلى ابن الزيات ليدخله على الخليفة ، فلم يفعل . وهو فيها شديد الضيق بما يرى حوله من قيام الحجاب بينه وبين عظماء الدولة . فهو يقول لابن الزيات:

أبا جعفرٍ إنَّ الجهالةَ أمُّها ... وَلُودٌ، وأمُّ العِلْمِ جَذَّاءُ حائِلُ
أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم ... شُعوبٌ تلاقتْ دوننا وقبائل
غدَوا وكأنَّ الجهلَ يجمعُهم بهِ ... أَبٌ وذوو الآدابِ فيهم نَواقِلُ (١)
فكُن هَضْبةً نأوِى إليها وحَرَّةً ... يُعَرِّدُ عنها الأعْوجِىُّ المُناقِل
فإنّ الفتى فِى كلِّ ضَربٍ مُناسِبٍ ... مناسِبُ رُوحانيّةٌ مَن يُشاكِل

فهو يتوسل إليه بالحرفة وقرابة الأدب .

* * *

ويمكن أن نضع فى هذه الفترة، من شعره الذى قاله فى القاضى أحمد بن أبى دواد مقطوعتين، إحداهما مطلعها :

أأحمدُ إن الحاسدين كثير ... ومالك إن عُدَّ الكرام نظير

وثانيتهما :

يا أيها الملكُ المعروفُ قُبَّتُهُ ... فيها حَيَا المزنِ إلا أنه بشر

ويظهر أن أبا تمام أخذ ينجر تدريجيا إلى التأثر بتلك الخصومة التى كانت قائمة بين ابن أبى دواد؛ فيعرض فى مدح القاضى بالوزير، وفى مدح الوزير بالقاضى؛ ويسوء ظن كل منهما به لتردده على الآخر، فكان أن ضاقا به جميعا، وحرماه عطاءهما جميعا، وبدأ الحزن يدب إليه ، لضيق رزقه ؛ كما يبدو ذلك فى القصائد التى أشرت إليها مما قاله فيهما .

(ج) ردُّ خالد بن يزيد عن إرمينية وقول أبى تمام : فى هذه السنة (٢٢٤) يكون خالد ابن يزيد بن مَزْيد الشيبانى، ممدوح أبى تمام فى سنة ٢١٦، فى سر من رأى، مردودا عن ولاية إرمينية بأمر الخليفة المعتصم، إذ كان قد ولاه إياها سنة ٢٢٣ . يقول اليعقوبى «فلما بلغ خبره إرمينية

(١) النواقل : قبائل تنتقل من قوم إلى قوم . وقد تكون النواقل جمع الناقلة ومعناها ولد الولد . والأول أقرب وأرجح .

تحصن كل رئيس فيها ، وآشتد خوفهم منه ، وعملوا على العصيان . فكتب منصور بن عيسى السبيعى، صاحب بريد إرمينية، إلى المعتصم بذلك فردّ خالدا[1] » .

ويذكر آبن خلكان فى كتابه، فى ترجمة آبن أبى دواد، مايشبه أن يكون فى هذه الحادثة عينها. يقول " إن المعتصم غضب على خالد بن يزيد بن مَزْيد الشيبانى ... ... وأشخصه من ولايته، لعجز لحقه فى مال طلب منه، وأسباب غير ذلك فحلس المعتصم لعقوبته، وكان قد طرح نفسه على القاضى أحمد (آبن أبى دواد) ... " ثم يمضى فى تفصيل شفاعة آبن أبى دواد فيه ، حتى يعفو عنه الخليفة ، ويعطيه هو وأصحابه رزق ستة أشهر كانوا قد آستحقوها . وما قاله آبن خلكان يتفق مع ما قاله اليعقوبى، ويزيد عليه أن من أسباب غضب المعتصم على خالد، ذلك العجز الذى لحقه فى مالٍ طلب منه، وأن المعتصم عفا عنه لشفاعة القاضى فيه . ولم يذكر أنه أعاده إلى الثغر . أما ناقل الديوان فيضع فى رأس قصيدة قالها أبو تمام لهذه المناسبة ما يفيد أنه كان قد نفاه إلى مكة ، فشفع آبن أبى دواد فيه، فقبل المعتصم شفاعته، وأعفاه من الخروج، وآستقر على حاله . ويمكن أن يفهم من عبارته الأخيرة "وآستقر على حاله" أن خالدا قد أعيد إلى الثغر ثانية وهذا ما لم يقل به أوسع كتب التواريخ تفصيلا لتاريخ هذه الناحية من الأرض؛ وهو اليعقوبى . وهو إنما يذكر ردّه إلى إرمينية ثانية فى عهد الواثق سنة ٢٣٠ . وهذا هو الذى يمكن أن يفسره شعر أبى تمام . وعندى أن ناقل الديوان ليس بالحجة الذى يعول عليه من الناحية التاريخية ، لا سيما أن اليعقوبى يتتبع ولاة إرمينية الذين ولوها بعد سنة ٢٢٣ إلى سنة ٢٣٠ وما بعدها، فيذكرهم ولا يشير فيهم إلى خالد .

مدحه أبو تمام فى هذه المناسبة بقصيدتين إحداهما :

يامُوضِعَ الشدَنِيةِ الوَجْناءِ ومُصارِعَ الإدلاجِ والإمساءِ
أَقْرِى السلامَ مُعرِّفًا ومُحصِّبا مِن خالدِ المعروفِ والهيجاءِ

وهى تُبين عن فن أبى تمام كيف كان يستخرجه من الواقع آستخراجا، لا فى موضوعاته وكفى، ولكن فى بديعه أيضا، وفى ألفاظ قصيدته . فنسمعه يقول : معرّفا أى نازلا بعرفات ، ومحصبا : أى نازلا المحصَّب فى مِنى، ونسمعه يذكر البطحاء ، ويجانس بين مُنًى ومِنى وحَرًى وحِراء ويقول :

وتعرفتْ عرفاتُ نائلَه ولم يُخْصَصْ كداءٌ منه بالإكداءِ
ولَطاب مُرتبعٍ بطيبة وآكتستْ بُرْدَيْنِ ، بُرد ثرًى وبُرد ثراءِ

(١) ج ٢ ص ٥٨٠

لا يُحْرَمُ الحرمان خيرًا إنهم حُرِموا به نوءا من الأنواءِ

وهو فيها ذاهب هذا المذهب، كثير الاستعارات، حسنها وقبيحها، ولكن أغلبها يبدو فيه التكلف والصنعة. وقال أيضا لما فاخره رجل فى مجلس وهو معزول عن الثغور :

أَقَرْمَ بكرٍ تُباهِى أيها الحَفَضُ ونَجْمها أيهذا الهالكُ الحرِضُ

* * *

(د) مدح له فى أبى سعيد الثغرى : وبينما هو كذلك إذ عاد أبو سعيد من غيبته بمكة، وذكر شاعره. يقول الصولى[1] : فكتب إلى أبى تمام كتابا، وقرنه ببر له، فجعل (أبو تمام) جوابه شعرا فى كتاب إليه، هو :

إنِّى أتتنى من لدنك صحيفةٌ غلبتْ همومَ النفسِ وهى غوالبُ
وطلبْتَ وُدِّى والتنائفُ بيننا فنداك مطلوبٌ ومجدُك طالب
فلتَلْقينَّك حيث كنتَ قصائد فيها لأهل المكرُماتِ مآرب
فكأنما هى فى السماعِ جنادل وكأنما هى فى القلوبِ كواكب

وفى هذه الأبيات من القصيدة ما يكشف عن شىء مما كان يخالط نفس أبى تمام من هم، وما كان يلقاه من عنت فى هذه الفترة يقول :

كُثرتْ خطايا الدهرِ فِىَّ وقد يُرَى بنداكَ وهو إلىَّ منها تائبُ
وتتابعتْ أيامُهُ وشهورُهُ عُصَبًا يُغِرْنَ كأنهنّ مَقانِب
من نكبةٍ محفوفةٍ بمصيبةٍ جُبَّ السنام لها وجُذَّ الغارب
أو لوعةٍ منتوجةٍ من فُرقةٍ حقُّ الدموعِ علىّ فيها واجب
ووهت مذ زُمَّتْ ركابُكَ للنوى فكأننى مذ غبتَ عنى غائب

ومن البيت :

فَلتَلْقينَّك حيث كنت قصائدٌ فيها لأهل المكرمات مآرب

يمكن أن نستظهر أنه كان يريد أن يبقى فى العراق، ويرسل قصائده إليه حيث هو. ولكن لم يلبث أبو تمام أن سار اليه، وأظن ذلك كان سنة ٢٢٥، فمدحه بقصيدته :

حَمتــهُ فآحتمى طعــمَ الهُجُودِ غداةَ رمتْــهُ بالطَّــرَفِ الصَّيُود

(١) ورقة ١١١

وهو يذكّره فيها بفعاله مع بابك . فمنها :

أليس بِأرشقٍ كنتَ المحامى عن الإسلامِ، ذا بأسٍ شديدِ
رآك الخرّميُّ عليه نارا تلهّبُ غيرَ خامدةِ الوَقُودِ
دلَفْتَ لهم بأبناءِ المنايا على العِقْبانِ فى خُلُقِ الأسودِ

ويمضى فيها خفيفا يصف أحداث بابك حتى ينتهى إلى أخذه ، فيأخذ فى الحديث عن حربه مع الروم :

فأمّا آلُ قيصرَ فاستعيدَتْ مَنَايا جَمْعِهم بيَدَىْ مُعيدِ
شننتَ عليهمُ الغاراتِ حتى لشيَّبَ شنُّها رأسَ الوليدِ

١٦ — اضطراب أبى تمام فى البلدان

(ا) فى الشام : وبينا أبو تمام عند أبى سعيد ، إذ ورد عليه كتاب من أهله بالشام ، فيه نعى عزيز عليه لا نعرف من هو . وقد يكون ابنه ، أو أخاه ، أو زوجته ؛ فأولئك جميعا قد ماتوا فى حياته ، ونعاهم . فاستأذن أبا سعيد فى الذهاب إلى أهله :

يا مَن به يفتخرُ الفخرُ ومن به يبتهج الشعرُ
ما طلبى للإذن أن شاقنى شمسٌ من الإنس ولا بدر
إلّا كتابٌ أخرسٌ ناطق أنطقَ منه طيَّه النشر
فانتشرت حين بدا طيُّه سرائرُ يكتمها الجهر
جاء نذيرُ الحزنِ فى بطنه بحادث أظهَره الظهر
فانهلَّ فى أسطره أسطر للدمع سَطر فوقه سَطر
فمُنَّ بالإذن على نازح عن أهله ساعته دهر

(ب) فى سامرّا : انحدر أبو تمام إلى الشام سنة ٢٢٥ ، ليبكى من مات من أهله ، ولا نعلم كم بقى هناك . غير أنا نجده سنة ٢٢٦ فى سُرّ من رأى ، يمدح المعتصم ، ويذكر إحراق الأفشين فى قصيدته :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ فحَذَارِ من أسدِ العَرين حذارِ
مَلِكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ واللهُ قد أوصى بحسن الجار

وقد تحدّثت عن هـذه القصيدة فى أماكن أخرى، ولكن لا بد هنا من الاشارة بشيء إلى الأفشين لجلاء بعض ما يعرض من أبيات أبى تمام فيه . فقد كان أبوه من ملوك فَرْغانة فيما وراء النهر، وكانوا مجوسا يعبدون النار . وفى ذلك يقول أبو تمام :

صلَّى لها حيا وكان وَقُودَها مَيْتا ويدخلها مع الفُجَّار

وأغلب الأمر أنه من الفرس، وليس من الأتراك كما ظنه بعضهم، فإن أفشين كلمة فارسية معناها الكريم، واسم أبيه كاووس : وهى كلمة فارسية معناها الكريم، والثابت، والدائم، والقاهر، والفاتح وغيرها . وهى اسم ملك من ملوك الفرس القدماء . أما أنهم من أشروسنه فهى من الأقاليم التى يلتقى فيها نفوذ الفرس بالترك، وكانت من الأماكن التى تطأها أقدام المغيرين من كلتا الأمتين، إذا أغارت احداهما على الأخرى، فلا غرابة أن يكون فيها حاكم فارسى . أما الأفشين نفسه فكان مسلما، وظل على هذا عند الناس جميعا حتى اتهم فى دينه سنة ٢٢٥، وفى أمانته للدولة، وبأنه حمل مازيار حاكم طبرستان على خلع المعتصم والثورة به . وقد أُخذ مازيار هذا، ويقال إنه أقر بذلك على الأفشين، ثم عاد فأنكره . ويتهمونه أيضا بتحريض خال ولده مَنْكجور الفرغانى، وكان بأذربيجان على الخلع، ففعل " وقتل جماعة من أعوان السلطان . فقال المعتصم للأفشين : أحضر منكجور . فوجه الأفشين إليه بأبى الساج المعروف بديوداد فى جيش عظيم . ثم بلغ المعتصم أن منكجور إنما خلع بأمر الأفشين، وأنه إنما وجه إليه بأبى الساج مددا . فوجه محمد بن حماد على البريد، ووجه بغا التركى لمحاربة منكجور، فلما صدقه القتال ضرع منكجور إلى طلب الأمان، وقدم به إلى سر من رأى وقد حبس الأفشين، وكان حبسه فى سنة ٢٢٦ " . أما ابن الأثير فيجعل حبس الأفشين سنة ٢٢٥، ويقول " إنه جمع بينه وبين مازيار فى السجن لما أُتى به الى سر من رأى، فى هذه السنة . وكان الأفشين قد حبس قبل ذلك بيوم، فأقر مازيار أن الأفشين كان يكاتبه، ويحسن له الخلاف والمعصية " . ولكن اليعقوبى يقول : " إنه لم يقر بشيء " .

ويقول ابن الأثير : "وضرب مازيار أربعمائة وخمسين سوطا، وطلب ماء للشرب فسقى، فمات".

وقد حاكمت الأفشين هيئة مكونة من محمد بن عبد الملك الزيات، وابن أبى دواد، وإسحق ابن إبراهيم المعصبى، وشهدت عليه جماعة أخرى . وتفصيل هذه المحاكمة مذكور فى ابن الأثير . وانتهى الأمر بردّه الى حبسه . وكانت وجدت عنده أصنام من أصنام أهل أشروسنة بلده، وكتاب مُذهَّب من كتب المجوس، واتهم بأنه لم يختتن .

* * *

وكتُب التاريخ مملوءة بالمتناقضات عن حادث الأفشين ، تهمتـه وبراءته ، بحيث يُظِلُّ الشك كثيرا من تاريخه . وإن الكتاب الواحد ليتضارب مع نفسه ، فينقل ما يفيد البراءة فى مكان ، وما يفيد التهمة فى آخر . ولقد لاحظ ابن الأثير ذلك على نفسه ، فعزاه الى كثرة الناقلين .

وعلى كل حال ، فقد مات الأفشين سنة ٢٢٦ فى سجنه ، فأخذ وصلب على باب العامة ثم أحرق . فقال أبو تمام فى ذلك قصيدته :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوارِ ... فحذارِ من أَسَدِ العرينِ حذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافةِ منكم ... والله قد أَوْصَى بحفظِ الجارِ
يا رُبَّ فتنـةِ أمّةٍ قـد بزَّها ... جبَّارُها فى طاعةِ الجبـارِ
جالتْ بخَيْذَرَ جَوْلَةُ المِقدارِ ... فأَحلَّهُ الطغيانُ دارَ بَوارِ

ومنهـا :

صادَى أميرَ المؤمنين بزِبرجٍ ... فى طيِّهِ حُمَةُ الشُّجاعِ الضَّارِى
مَكْرًا بَنَى رُكنَيْـهِ إلا أنَّهُ ... وَطَدَ الأساسَ على شَفيرٍ هارِ

ويقول فى وصف احتراقه :

ما زال سِرُّ الكفرِ بين ضلوعِهِ ... حتى أصطلى سرَّ الزنادِ الوارِى
نارًا يُساوِرُ جِسمَهُ من حرِّها ... لَهَبٌ كما عَصْفَرْتَ شِقَّ إزارِ
طارتْ لها شُعَلٌ يهدِّم لفحُها ... أركانَهُ هَـدْما بغـيرِ غُبـارِ
فَصَّلْنَ منه كلَّ مجمعِ مَفصِلٍ ... وفعلْنَ فاقرةً بكل فِقَـارِ
لِلهِ مِن نارٍ رأيتُ وَقـودها ... ضاق الفضاءُ به على النظَّارِ
مشبوبةٍ رِفعت لأعظمِ مشرِكٍ ... ما كان يرفع ضوءها للسارِى
صلَّى لهـا حيًّا وكان وَقُودَها ... مَيْتًا ويدخلهـا مع الفُـجّارِ

ويقول منها فى ذكر صلب بابك ومازيار ، وكان جسماهما لا يزالان مصلوبين :

ولقد شفى الأحشاءَ من بُرَحائِها ... أنْ صـار بابَكُ جارَ مازيارِ
ثانيهِ فى كبِدِ السماءِ ولم يكن ... لِاثنينِ ثانٍ إذ هما فى الغارِ

ثم يقول مشيرا إلى ياطس، خال ملك الروم، الذى أسره المعتصم فى عمورية، وكان مات سنة ٢٢٤ :

وكأنما ٱبتدرا لِكيما يطويا عن ياطِسٍ خبرا مِن الأَخبارِ

ثم يختمها بأبيات يوصى فيها الخليفة بٱبنه الواثق، ويحثه فيها على جعله ولى عهده :

فٱشدُدْ بهارونَ الخلافة إنه سكَنٌ لِوَحْشتها ودارُ قَرارِ

الأبيات ... ...

(ج) فى كُوَر الفرات مع مالك بن طَوْق : لم يقم أبو تمام فى سُرَّ مَنْ رأى طويلا، فرحل إلى كور الفرات فى الجزيرة، يمدح مالك بن طوق، ويذكر خلافا كان بينه وبين قومه من التغلبيين. يذكر أبو تمّام ذلك الخلاف فى قصائد له طوال، مليئة بالشعر والتجربة والقصص. وهو يتنقل معه فى رحلاته لإخضاع الثائرين من أسامة، وتطول إقامة مالك بأقاليم من ريف العراق، لا سبيل لأبى تمام الحضرىّ، المولع بحياة المدن إلى ٱحتمالها، فيصرخ به أن يعجل الرحيل عن هذه القرى الصغيرة :

يامالكَ ٱبنَ المالِكين أَرَى الذى كنا نؤمِّلُ مِن إيابِك رَاثَا
لولا ٱعتمادُكَ كنتُ فى مَنْدُوحةٍ عن بَرْقعيدَ وأَرضِ باعَيْنَاثا
والكاظِمِيَّةُ لم تكُنْ لى مَوْطِنا ومقابِرُ اللذاتِ مِن قِيرَاثا

ومنها :

أرضٌ خلعتُ اللهوَ خَلعى خاتمى فيها وطلقتُ السرورَ ثلاثا

حتى إذا أخضعهم، أخذ أبو تمام فى الشفاعة لهم عنده، فيقول من قصيدة :

ورأيت قومك، والإساءةُ منهمُ، جَرحى بظفرٍ للزمانِ وناب
هم صيَّروا تلك البروقَ صواعقا فيهم، وذاك العفوَ سَوْطَ عذابِ
فٱقبَلْ أُسامةَ جُرْمها وٱصفَحْ لها عنه، وهَبْ ما كان لِلوهابِ

ويقول من قصيدة له فى مالك يصف بيوت أحبائه :

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم نسجد كما سجد الأفشين لِلصنمِ

مما يدل على أنه اتصل به بعد حادث الأفشين.

ويظهر أن اختلاف أسامة ومالك هذا، قد طال وزاد، حتى ٱضطرّ الخليفة إلى عزل مالك عن الجزيرة كما يقول جامع الديوان، فقال أبو تمام يمدحه :

أرض مُصَرَّدَةٌ وأخرى نُتْجَم تلك التى رُزِقت وأخرى تُحرَمُ
وإذا تأمّلتَ البلاد رأيتها تُثْرِى كما تُثرِى الرجالُ وتُعدِم

ومنها :

تلك الجزيرةُ مُذْ تحمّلَ مالكٌ أضحتْ و بابُ الغيثِ عنها مُبْهَمُ

ومنها :

مَهْلًا بنى غُنْمِ بنِ تغلِبَ إنكم هدفُ الأَسنّةِ والقَنَا يتحطم

ومنها :

فستذكرونَ غدا صَنيعَة مالكٍ إن حلَّ خَطبٌ أَو تدوفِع مَغْرَمُ

* * *

مالى رأيتُ ثَرَاكُمُ يَبَسًا لَهُ مالِى أرى أطوادكم تتهدَّم
ما هذه القُرْبَى التى لا تَتَّقِى ما هذه القُربى التى لا ترحم
حَسَدُ العشيرةِ لِلعشيرةِ قُرْحَةٌ تلِدت وسائلها وجُرح أقدم
تلكمْ قريشٌ لم تكن آراؤها تهفو ولا أحلامُهُمْ تتقسم
حتى إذا بُعِثَ النبى محمد فيهم غدت شحناؤهم تتضرم

ومنها البيت المشهور :

فقسا لِتزدجِروا ومن يكُ حازِمًا فَلْيقسُ أحيانا على من يَرحمُ

(د) فى سامَرَّا : ويظهر أن أبا تمام ورد عليه وهو هنالك نعى المعتصم ، فانحدر الى سر من رأى ليهنئ الخليفة الجديد بالخلافة، وليعزيه فى وفاة أبيه . ولقد كانت له يد سابقة عنده، وذلك منذ كان يتوسط له عند أبيه ليوليه الأمر من بعده، كما سبق حديثى عن ذلك .

مات المعتصم فى يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧، وولى ابنه الواثق يوم مات أبوه . فقال أبو تمام قصيدته :

ما لِلدموع تَرُومُ كلَّ مَرامِ والجَفْن ثاكِل هجعةٍ ومنامِ
يا تُربةَ المَعصومِ تُربُكِ مُودَعٌ ماءَ الحياةِ وقاتلَ الإعدام

ومنها يجمع بين التهنئة والتعزية :

ما دامَ هارونُ الخليفةَ فالهدى فى غِبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
إنا رَحلنا واثقين بواثقٍ بالله، شمسِ ضُحًى وبدرِ تمامِ

لله أيُّ حياةٍ أنبعثت لنا يومَ الخميسِ وبَعْدَ أيِّ حِمامِ
تلك الرزيّةُ لا رزيّةَ مثلها والقَسْمُ ليس كسائرِ الأقسامِ

(هـ) فى دمشق مع أبى المغيث : فى هذه النسبة اندلعت نار الثورة فى دمشق، وكان على ولايتها أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى، ممدوح أبى تمام الذى سبق حديثى عنه .

يقول صاحب النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٢٢٧ : "وفيها بعث المعتصم على دمشق الأمير أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى ، فخرجت عليه طائفة من قَيْس، لكونه أخذ منهم خمسة عشر رجلا فصلبهم . فجهز إليهم أبو المغيث جيشا، فهزموه وزحفوا على دمشق، فتحصن بها أبو المغيث، ووقع حصار شديد ، ومات المعتصم والأمر على ذلك . فاستمر فى الحصار إلى أن كتب الواثق إلى رجاء الحضارى (قائد من قواده كان يخضع ثورة رجل آخر فى فلسطين اسمه المبرقع) أن يتوجه إلى دمشق مددا لأبى المغيث . فقدم دمشق وحارب القيسية حتى هزمهم، وقتل منهم ألفا وخمسمائة وقتل من الأجناد ثلاثمائة " .

سمع أبو تمام بهذه الثورة ، وكان فى العراق كما رأينا مع مالك بن طوق أولا، ثم فى سر من رأى ثانيا يرثى الخليفة . فلما فرغ من ذلك، أخذ يفكر فى الذهاب إلى بلده حيث كان يأمل أن يجد عيشا أكثر استقرارا ، وأكثر لينا من عيش الرحلة الدائمة ، التى قضى فيها أيامه منذ نشأ . وكان ذلك النشاط الهائل الذى غلب على أيامه قد أثر فى ميوله وآماله ، فهو اليوم يطمع فى حياة هادئة . وقد هداه حسه إلى أن يكون ذلك فى وظيفة أو عمل من أعمال الدولة يقوم به فينال رزقا منتظما يستطيع أن يعتمد عليه ، فى غير احتياج إلى مدح فلان أو ذم فلان . ويظهر أنه برغم إسرافه كان قد أثرى شيئا . فان ابن نباته فى كتاب سرح العيون ، يقص علينا قصة مقدمه إلى الشام فى مرة ، يغلب أن تكون هى هذه المرة، أو مرة أخرى أتاها بعدها ؛ يقول "ثم ترقت حالُ أبى تمام، وتموّل بالمال الجزيل حتى عاد إلى بلده ، فضرب خياما وأظهر نعمة وأثاثا . فخرجت امرأة من بعض أحياء العرب ومعها أختها يستقيان، فتأملته زمانا، ثم التفتت إلى صاحبتها وقالت : أتدرين الرجل؟ قالت : لا والله . قالت : بلى والله أنا أعرفه . قالت : ومن هو؟ قالت : إنه والله أفيرع جاسم . فلما سمع ما قالت النسوة رحل من وقته وساعته وعاد إلى الموصل فما زال بها الى أن مات رحمة الله تعالى عليه".

شدَّ أبو تمام رحاله إلى بلده ، ويظهر من القصة أنه نزل جاسما بعد هدوء الثورة فى دمشق . وقد عاد هذه المرة إلى الشام وهو أذيع ما يكون اسما، وأعظم ما كان فى يوم جاها، مدح ثلاثة خلفاء،

وآتصل بأعظم رجال الدولة، فلا خوف عليه أن يقف وجها لوجه أمام الرجل الذى آستثار حقده من قبل، حتى تهدده بالقتل، وكان يفعل لو آستطاع أن يصل اليه . وإنه اليوم أولى بأن يخشاه من أن يخيفه . أرسل إليه أبو تمام من بلده جاسم، وكان موسى فى دمشق، هذه القصيدة :

أقشيبَ رَبْعِهُمُ أراكَ دَريسَا وقرى ضيوفكَ لوعةً ورَسيسَا
فلئن حُبِستَ على البِلى لقد آغتدى دمعى عليك إلى الممات حبيسا
حتى كأنَّ أُمَيْمَ كانوا سُكَّاً بكَ والعاليقَ الألَى وجَديسا
وأرَى ربُوعَكَ مُوحشاتٍ بعدما قد كنتَ مألوفَ المحل أنِيسَا
وبلاقعًا حتى كأنّ قطينها حلفوا يمينا أخْلَقَتْكَ غَمُوسا
رُودٌ أصابتها النوى فى خُرَّدٍ كانَتْ بُدورَ دُجُنَّةٍ وشُمُوسا
فكأنما أهدَى شقائقه إلى وجناتهنَّ ضُحًى أبو قابوسا
قد أُوتيتْ مِن كل شيءٍ نعمةً ، وَدَداً ، وحسنا فى الصِّبا مغموسا
لولا حداثتُها وأنى لا أرَى عرشا لها لَظَنَنْتُها بِلقِيسا

مَثَلٌ من أمثلة الشعر فى طوره الأخير عند أبى تمام، حيث يمثل فنه ناضجًا . فيه الفكرة ، وفيه أثر الثقافة الواسعة ، والآنتفاع بهذه الثقافة آنتفاعا سائغا فى كل شىء : فى الإبانة عن الفكرة ، وفى آستخراج تشابيهه . وترى فى قصيدته ذلك الذوق المهذب فى آختيار الألفاظ، وآنتقاء الصور، وبالجملة ففى هذه الأبيات مثل لغاية ما وصل إليه فن أبى تمام فى الغزل . ذلك الفنّ الذى لا يأتى به عفوا، وإنما يأتى به متعمدا له، قاصدا إليه، مهذبا، مثقفا فى غير جفاء ولا جفاف ماء .

ومنها بيت يكشف عن سخرية معلّلة من أبى تمام بالتنجيم، يضاف إلى أبياته التى قالها من قصيدته فى فتح عمورية :

ما فى النجومِ سِوى تَعِلّةِ باطلٍ قُدُمَتْ وأُسس إفكُها تأسِيسا

ثم يأخذ فى ذكر الثورة التى كانت بدمشق فيقول :

فتنَ جلوتَ ظلامَها مِن بعدِ ما مَدُّوا عُيونا نحوَها ورؤوسا
حربٌ يكون الجيشَ بعضُ صَبُوحِها ويكون فضلُ غَبوقِها الكُردوسا
غُرْمُ آمرِئٍ مِن رُوحِهِ فيها إذا ذو السِّلم أغْرِم مَطْعَما ولَبوسا
كم بينَ قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

سار ابنُ إبراهيمَ موسى سيرةً ... سَكَنَ الزمانُ لها وكان شَمُوسا
فأقرَّ واسطةَ الشآمِ وأنشرتْ ... كفّاهُ جودا لم يَزَلْ مَرْمُوسَا
كانت مدينةُ عَسقلانَ عروسها ... فغدت بسيرته دمشقُ عروسا
من بعد ما صارت هُنَيْدَةُ صِرْمَةً ... والبَدْرةُ النَّجلاءُ صارتْ كِيسَا[1]
فكأنَّهم بالعجل ضَلُّوا حقبةً ... وكأنَّ موسى إذ أتاهُمْ مُوسَى

ومنها يطلب الوظيفة :

أَعْطِ الرياسةَ من يَدَيْكَ فلم تَزَلْ ... مِن قبلِ أنْ تُدعَى الرئيسَ رئيسا[2]

ثم يلقى عليه درسا طيبا فى معاملة الرعية يستطيع الإنسان أن يرى فيه فرق ما بين منزلة أبى تمام الآن، ومنزلته أيام كان يمدحه أول مرة :

أَسْقِ الرعيّةَ من بشاشتك التى ... لو أنها ماءٌ لكان مَسُوسا
إنَّ الطلاقةَ والندى خيرَ لهم ... من عفّةٍ جَمَسَتْ عليكَ جُمُوسا
لو أن أسباب العفاف بلا تُقًى ... نفعَتْ لقد نفعَتْ إذن إبليسا

ولثانى مرة، نجد أبا تمام يثور على الظلم ثورته الهادئة . ولقد رأينا الأولى فى قصيدته للمعتصم عند رجعته من عمورية لما قبض على أبناء المأمون، وسجنهم بسبب خلع أخيهم العباس له .

وقد رأينا من قبل، كيف أن أبا المغيث صلب خمسة عشر رجلا من قيس . فأبو تمام يؤنبه فى شىء من المداراة، أملا أن ينال منه العمل الذى يبغيه . وفى آخرها يقول له البيت الذى يرى أنه أرسل إليه بالقصيدة إرسالا :

إنّا بعثنا الشعرَ نحوَك مفردا ... فإذا أذِنتَ لنا بعثنا العِيسا

ولكن أبا المغيث لم يكن نسى ما كان من أبى تمام منذ نيّف وعشرين سنة؛ ويظهر أنه صرح بذلك فقال : " أأعطيه ما يطلب وقد هجانى ؟ " . وبلغ ذلك أبا تمام فرحل إليه بقصيدة أخرى ينكر فيها أنه هجاه . يقول منها :

---

(١) الهنيدة : اسم لمائة من الإبل؛ أو لما فوقها ودونها أو للمائتين . والصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين الى الثلاثين، أو ما بين العشرة الى الأربعين . وغير ذلك . والبدرة : كيس فيه سبعة آلاف دينار .

(٢) لهذا البيت وجه آخر، فقد يؤول على أنه : أعط رياستك للناس، حقها من نعمتك ومن عدلك . وهذا على كل حال لا يؤثر فى تاريخ القصيدة لعلاقتها التاريخية بالثورة التى كانت فى دمشق سنة ٢٢٧ . كما أن النص يمكن أن يفهم على الوجه الذى ذكرت أولا، يقويه ما كان من طلب أبى تمام الوظيفة فى آخر أيامه .

أتانى مع الركبان ظنٌّ ظننتَه ... لففتُ له رأسى حياءً من المجدِ
لقد نَكَبَ الغدرُ الوفاءَ بساحتى ... إذن، وسرحتُ الذم فى مسرح الحمدِ
وهَتَّكتُ بالقولِ الخنا حرمة العلا ... وأسلكتُ حُرَّ الشعرِ فى مَسلكِ العبدِ
نسيتُ إذن كم من يدٍ لك شاكلتْ ... يد القربِ أعْدَتْ مستهاما على البعدِ
ومن زمنِ البستنيهِ كأنه ... إذا ذُكرتْ أيامُه زمنُ الوَرْدِ
وأنك أحكمتَ الذى بين فكرتى ... وبين الليالى من ذمامٍ ومن عهدِ
وأصّلتَ شعرى فاعتلى رَوْنَقَ الضحى ... ولولاك لم يظهر زمانا من الغمدِ
فكيف وما أخلتُ بعدك بالهجا ... وأنت فلم تُخلِلْ بمَكْرُمةٍ بعدى
أُسربِلُ هُجْرَ القولِ من لو هجوتُه ... إذن لهجانى عنه معروفُه عندى
كريمٌ متى أمدحْه أمدحْه والورى ... معى، ومتى ما لُمتُه لُمتُه وحدى
ولو لم يزَعْنِى عنك للحِلمِ وازعٌ ... لأعدينِى بالحلم إنّ العُلَى تُعدِى
أبَى ذاك أنّى لست أعرف دائما ... على سُوددٍ حتى يدومَ على العهدِ
وإنى رأيتُ الوشمَ فى خُلُقِ الفتى ... هو الوشمُ لاما كان فى الشَّعرِ والجلدِ
أرد يدى عن عِرْضِ حُرٍّ ومنطقٍ ... وأملؤها من لِبْدةِ الأسدِ الوَرْدِ

وكأنه لاحظ أنه أطال الاعتذار، فى كثير من الكذب، فيختم القصيدة بشىء من اعتراف النادم الذى يعمل فى نفسه نجل :

فإنْ يكُ جُرْمٌ عزَّ أو تكُ هفوة ... على خطأٍ منى فعذرى على عَمْدِ

ولقد يُنكَر على أبى تمام هذا الكذبُ فى الاعتذار، إلا أن الإنسان يجد مخففا فى هذا البيت الأخير، كما يجد مخففا آخر فى حياة أبى تمام أواخر أيامه؛ فهى تكاد تخلو من الهجاء إلا قليلا جدا. ويظهر أن نفس أبى تمام لم تكن تستسيغه، أو تقبل عليه إلا قسرا. ففى هذا الاعتذار إلى أبى المغيث عن هجائه إياه فى شبابه، معنى من نفور أبى تمام مما كان ركبه، ولذلك كان شديد القسوة على نفسه فى الاعتذار. وكأنى به كان يظن أن الزمان قد ابتلع هذا الهجاء إلى غير رجعة، ولكن التاريخ كان أوعى منه قلبا. ومنها يذكر رحيله إليه :

سَرَيْنَ بنا رَهْوًا ووخْدًا وإنما ... يبيت ويُمسى النجمُ فى ذمة الوَخْدِ
قواصدَ بالسير الحثيث إلى أبى الـ ... ـمغيث فما تنفكُّ تُرْقِلُ أو تَخْدِى

إليك ثغرنا ما بَنَتْ فى ظهورها ظهورُ الثرَى الربعىِّ من فَدَنٍ نَهْد
سرتْ تحمل العُتْبَى إلى العَتْب والرضا إلى السخطِ والعذرَ المُبينَ إلى الحقد

ولكن هذا الحقد الذى كان يعرفه أبو تمام، لم يذهبه هذا الاعتذار، فلم ينل تلك الرياسة التى كان يبغى، ولم يهنأ له المقام بوطنه كما كان يرجو، فشدّ رحاله ثانية إلى العراق، عسى أن يجد عند ذوى الشأن فيها ما لم يجده عن أبى المغيث.

(و) فى العراق:

تأثره بالمنافسة بين آبن أبى دواد وآبن الزيات:

عاد أبو تمام إلى العراق، وأغلب ما كان ذلك آخر سنة ٢٢٧، أو أول سنة ٢٢٨، فقضى فيها فترة آتصل فيها بكل مشاهير ذلك الزمن، مشتبكا بهم آشتباكا لا يمكن الإنسان معه أن يميز فى يقين بين دقائقه وكبائره، ما تقدم منها وما تأخر. ولكنه فى جميعها كانت تعمل فى رأسه فكرة العمل المستقر، فى ولاية من ولايات الدولة، لينال أجرا ثابتا، وليفيد ثروة كان يرى كل رجال الدولة يفيدونها من عملهم.

فنراه يمدح إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعب، وقد تحدّث عن مدائحه فيه سابقا، أيام إخضاعه المحمِّرة بالجبال سنة ٢١٨. يمدحه هذه المرة، وهو على شرطة الواثق، كما كان على شرطة المعتصم من قبل، بقصيدة مطلعها:

قُل للأمير الذى قد نال ما طلبا وردّ من سالف المعروف ما ذهبا

فيقول له منها:

ونادبٌ رَفَعَ قدر كنتُ آمله لدَيْكَ، لا فضةً أبغى ولا ذهبا
أدعُوكَ دعوةَ مظلوم وسيلتُهُ إن لم تكنْ بى رحيما فآرحمْ الأدبا

ولكن هذه الدعوة لا تجد آستجابة من إسحاق، فيتجه أبو تمام إلى آبن الزيات، وهما صاحبان قديمان بقصيدة مطلعها:

لَهَانَ علينا أن نقولَ وتَفْعَلا ونذكرَ بعض الفضلِ منك فتفضلا

ومنها يذكر آبن الزيات:

هززتَ أميرَ المؤمنين! محمدًا فكان رُدَيْنِيًّا وأبيضَ مُنْصَلا

وهو فيها شديد الضيق، يهدّد بالرحيل إلى أهله فى الشام، ويذكر أنه ما كاد يراهم حتى فارقهم:

سأقطع أمطاء المطايا برحلة ... إلى الوطن الغربىّ هَجْرا ومَوْصلا
إلى الرحم الدُّنيا التى قد أجفّها ... عُقوق، عسى أسبابُها أن تُبلّلا
قبيلٌ وأهلٌ لم ألاقِ مَشُوقَهُم ... لوَشْكِ النوى إلّا فُواقًا كَلَا ولا
كأنهُم كانوا لخفّةِ وقفتى ... معارفَ لى، أو منزلى كان منزِلا

ومنها:

وأصرفُ وجهى عن بلاد غدا بها ... لسانىَ معقولا وقلبىَ مُقْفَلا
وجدّ بها قومٌ سواى فصادفوا ... بها الصُّنع أعشَى والزمانَ مُغفّلا
كلابٌ أغارت فى فريسة ضيغم ... طُروقا، وهامٌ أُطعمتْ صيد أجْدَلا
وإنّ صريح الحزم والرأى لامرىءٍ ... إذا بلغَتْهُ الشمسُ أنْ يتحوّلا

ثم ينقلب إلى غايته التى يلح فى طلبها، والتى من أجلها غضب غضبته هذه، فيقول:

فمُرْنِى بأمرٍ أحوَذىٍّ فإننى ... رأيتُ العِدَى أثْرَوا وأصبحتُ مُرْمِلا

ويظهر أن آبن الزيات، كان يرى أن أبا تمام الشاعر خير له أن يبقى شاعرا، فكان يساعده بوسائل أخرى كأن يقدّمه إلى الخليفة.

يقول الصولى[1]: "وجدت بخط أحمد بن إسماعيل بن الخصيب، أن محمد بن عبد الملك أوصل إلى الواثق قصيدة لأبى تمام يمدحه بها، أوّلها:

وَأَبِى المنازلُ إنها لَشُجُونُ ... وعلى العُجُومَةِ إنها لَتُبِينُ

فقرئت عليه فلما جاء إلى قوله:

جاءتك من نَظْم اللسانِ قِلادةٌ ... سِمْطان فيها اللؤلؤُ المكنونُ
حُذيتْ حِذاء الحضرميّة أرهفت ... وأجابها التخصيرُ والتلسينُ
إنسيةٌ وحشيةٌ كثُرتْ بها ... حركاتُ أهل الأرض وهى سُكون
أمّا المعانى فهى أبكار إذا ... نُصّتْ ولكنّ القوافى عُونُ
أحْذاكَها صَنعُ الضمير يمُدُّهُ ... جَفْرٌ إذا نَضَبَ الكلامُ مَعِين
ويسىء بالإحسان ظنا لا كَمَنْ ... هو بآبنه وبشعرِهِ مفتونُ

(١) أخبار أبى تمام (ورقة ١٠٠).

فقال : أدفع اليه مائتى دينار . فقال محمد : إنه قوى الأمل، واسع الشكر . قال : فأضعفها له . وقد روينا من غير هذه الجهة أنه أمر له بمائة ألف درهم " .

وكان أبو تمام وثيق الصلة بآبن الزيات، صديقه أكثر منه شاعره . وكان آبن ابى دواد لا يحب آبن الزيات، و يظهر أن هذه العداوة بين آبن أبى دواد وصديقه آبن الزيات، كانت تطلق فى القاضى لسانه أحيانا حتى غضب . وإن كان الصولى يُرجع الخصومة بينه و بين آبن أبى دواد إلى فخر أبى تمام بنسبه إلى اليمن، حتى فضلهم على مضر، وإياد التى منها آبن أبى دواد عدنانيـة . إلا أنى ألمح هذا السبب الذى أنسب إليه غضب آبن أبى دواد على أبى تمام، فى تعريض بالقاضى خفىّ فى شـعره، حين كان يمدح آبن الزيات أو يعتذر إليه . و يقول الصولى إنه أمر بحجبه عنه ، فراح أبو تمـام يعتذر اليه بشعر كثير . فقال قصيدته :

سَقَى عهدَ الحِمى سَيلُ العِهَاد ورُوِّضَ جاضـرٌ منهُ و بادِ

ومنها يعتذر إليه :

وما سافرتُ فى الآفاق إلَّا ومن جَدواك راحلَتى وزادى
مُقيمُ الظنِّ عندك والأمانى وان قَلِقتْ رِكابى فى البـلاد
مَعادُ البعث معروفٌ ولكن نَدَى كفَّيْكَ فى الدنيا مَعادى
أتانى عابرُ الأنبـاء تَسْـرِى عقـاربُه بداهيـة نـآد[1]
نَثَا خبرٌ كأنَّ القلب أمسى يُجَـرُّ به على شَـوْكِ القَتَـاد
كأنّ الشمس جلَّلها كسوفٌ أو آسترتْ برَجْلٍ مِن جَراد
بأنّى نلتُ مِنْ مُضَر وخَبَّتْ إليك شكيَّتى خَبَبَ الجـواد
ومـا رَبْعُ القطيعة لى برَبْع ولا نادى الأذى منى بِنـادِ
وأين يجورُ عن قَصْدٍ لسانى وقلـبى رائحٌ بِرِضاك غَاد
وممَّـا كانت الحكماءُ قالت : لسانُ المـرء مِن خدَم الفؤاد

ثم يمضى بعدها فى الآعتـذار طويلا ، مستندا إلى أن ذلك ليس يأتى إلا من لئيم ، وهو أولى بأن يجتنب أمام نفسه أن يوصف باللؤم . ثم يأخذ بعد ذلك فى نصحه بالتثبت من هذه الوشايات، ضاربا الأمثال بما حدث فى التاريخ من بلايا ومصائب بسبب الوشاية :

(١) النآد : الداهية، كأنه يقول : داهية دهياء .

تثبَّتْ . إنَّ قولا كان زورا إلى النعمان قبلك عن زِياد
وأرث بين حَيَّ بنى جُلَاح سَنَا حرب و بين بنى مُصَاد[1]

وهكذا يمضى فى قصيدة هى من أجمل قصائده، ولكن آبن أبى دواد لم يزل غضبه . فعمل قصيدة أخرى يعتذر إليه فيها، و يستشفع بخالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيبانى، وهى :

أرأيتَ أىَّ سوالفٍ وخدودِ عنَّتْ لنا بينَ النوى فزَرُودِ

وهى جارية مجرى الأولى فى شاعريتها وخصبها . ومنها يذكر شفاعة خالد :

فآسمعْ مقالة زائرٍ لم تشتبِه آراؤه عند آشتباهِ البِيدِ
يَسْتَام بعضَ القول منك بفعله كَلَّا ، وعفوَ رضاكَ بالمجهود
أسْرَى طريدا للحياء من التى زعموا، وليس لِرَهْبة بطريد
كنتَ الربيعَ أمامَه، ووراءَهُ قمرُ القبائل خالدُ بنُ يَزِيد

وهذه القصيدة لم تلق من القبول عند آبن أبى دواد أكثر مما لقيت سابقتها ؛ فكتب إليه أبو تمام مقطوعة أخرى :

أأَحْمَدُ إنَّ الحاسدينَ حُشُودُ وإن مَصَاب المُزْنِ حيث تريد

ولقى خالد أخيرا فى شفاعته النجاح الذى لم تجده قصائد أبى تمام ، فرضى آبن أبى دواد عن أبى تمام فأخذ يمدحه بعد ذلك بقصائد كثيرة منها :

سَعِدتْ غربة النوى بسُعاد فهىَ طوعُ الإتْهام والإنْجاد

يقول فيها يذكر هذه الوشاية :

بَعد ما أصْلتِ الوُشاةُ سيوفا قَطَّعتْ فىَّ وهىَ غيرُ حِدادِ
مِن أحاديث حين دُوِّخْتها بالـ ـتر أى كانت ضعيفةَ الأَسْنَادِ
فنفَى عنكَ زخرفَ القولِ سمعٌ لم يكنْ فرصةً لغير السَّداد
ضَرَبَ الحلمُ والوقارُ عليه دونَ عُورِ الكلام بالأَسْداد

ومما قاله أيضا بعد هذه الخصومة قصيدة مطلعها :

أَهْلُوكَ أمْسوا شاخصا ومقوِّضا ومزمِّما يصفُ النَّوَى ومغرِّضا[2]

(١) جلاح ومصاد : حيان من كلب اليمن، فرقت أقوال الناس بينهما فتحاربا طويلا .
(٢) غرض النافة : شدّها بالغرضة .

ومنها البيت :

لو كان أبغضَ قلبَهُ فيما مضَى أحدٌ لَكُنْتُ إذنْ لقلبيَ مُبغِضا

وهو يذكّر بقول المتنبي :

حبَبْتُكَ قلبي قبل حبِّكَ من نأَى وقد كان غدَّارا فكُنْ أنت وافيا

ومنها بيت يرى كيف كان أبو تمام يستخرج شعره وتشابيهه من صميم الحياة :

عِنْدِي من الأيامِ ما لَوْ أنّه أضحى بشارب مُرقِدٍ ما غَمَّضا

وبيت آخر يهتك الحجب عن لون من ألوان الرياء النفس، التي لازمت الإنسان زمنا في فهم معنى الصبر والتجلد :

ما عُوِّضَ الصبرَ امرؤ إلّا رأى ما فاته دون الذي قد عُوِّضا

وأبيات أُخر تبين عن سبب هم أبي تمام بغضب ابن أبي دواد وهي :

لمّا انتضيتُك للخُطوبِ كُفيتُها والسيف لا يَكفيكَ حتى يُنْتضَى
ما زِلتُ أرقب تحت أفياءِ المنى يوما بوجهٍ مثلِ وجهك أبيضا
كم مَحْضَرٍ لكَ مُرْتضىً لم تدّخِرْ محمودَهُ عند الإمامِ المُرْتَضَى
لولاك عزَّ لِقاؤُهُ فيما بَقِي أضعافَ ما قد عزَّني فيما مضى

"وبقي" في البيت، بفتح القاف اتباعا للغة طيء .

* * *

يمكن بعد هذا أن نضع قصائد أبي تمام في ابن أبي دؤاد حول زمن الخصومة هذه، فهي تصلح لأن تكون قيلت قبل أن تشب الخصومة بينه وبين أبي تمام، أو بعدها . وأهم الباقي اثنتان : إحداهما أشبه بأن تكون قيلت بعد الخصومة إذ يقول فيها :

إن خيرا مما رأيت من الصفـ ـحِ عن النائباتِ والإغماضِ
غربة تقتدي بغربةِ قيسٍ بـ ـنِ زهيرٍ والحارثِ بنِ مُضاضِ

وثانيتهما :

أَلم يَأْنِ أن تُرْوَى الظماءُ الحوائم وأَنْ يَنظِمَ الشملَ المبدَّدَ ناظِمُ

وفيها ذكر لرحلته إلى الممدوح، وأغلب أن تكون قيلت قبل الخصومة، حين رجع أبو تمام من الشام لآخر مرة .

* * *

ويظهر أن الشحناء دبت بينه وبين خالد بن يزيد بن مَزْيد الشيبانى فى ذلك الحين . فقال قصيدة يمدح فيها آبن الزيات — ولم يكن قد آنقطع عن صحبته ، بسبب حادث آبن أبى دواد — ويعرض بخالد بن يزيد الشيبانى . ومطلعها :

خَلِّ سبيلَ تهائمى ونُجُودِى ... مِمَّا يغرُّك ، طارِقِى وتليدِى

وفيها ما يدل على أنها قيلت فى آبن الزيات أيام الواثق ، قوله :

ونوالُ ذِى الشرفَيْنِ عندَ خليفةٍ ... باقٍ وماضٍ ، قبلَ ذاك ، حميدِ

وقبلتَ تلك على الوفاءِ فأصبحَت ... هـذى تشيرُ إليـكَ بالإقليـدِ

فنصحْتَ للملكينِ يَزعُمُ أنّـه ... نصحُ الإمامِ قَرابةُ التوحيـدِ

وآبن الزيات إنما خدم المعتصم ، ثم الواثق من بعده . ومنها يشير إلى خالد :

ما ضَرَّها إذْ كنتَ بنَّاءً بهـا ... أَلَّا تكونَ لخـالدِ بنِ يزيـدِ

ومُكاشِحٍ يلوى بَنَانةَ كفِّهِ ... بغيا ، فقلت لها : القضاءُ نَشيدِى

احسِدْ على نيلِ المكارمِ والعُلَى ... إنْ لم تَكُنْ فى حالةِ المحسود

اتصاله بالحسن بن وهب : وفى هـذه الفترة يتعرف أبو تمام بالحسن بن وهب ويتصادقان . والحسن من كتاب الدولة ذوى الشأن ، فيقول فيه شعرا ، ويتقرب إليه . ويقول لنا آبن خلكان : إنه جعله على بريد الموصل ، وليس واليا عليها ؛ وإنه تتبع ذلك وحقّقه ؛ ويقول إنه أقام بها أقل من سنتين ثم مات بها .

هل عمل أبو تمام على بريد الموصل : ولا أستطيع أن أمر بهذا التحقيق الذى يقول عنه آبن خلكان ، دون أن أقف عنده وقفة ما .

فأبو تمام من غير شك لم يمت قبل سنة ٢٣٠ ، لأنه يرثى خالد بن يزيد بن مَزْيَد ، الذى مات فى هذه السنة ، كما فى اليعقوبى ، فى إرمينية ، وكان الواثق قد ردّه عليها . وروايات موت أبى تمام قبل سنة ٢٣٠ ، أو فيها لا تجد سندا فى أقدم الكتب بين أيدينا : أخبار الصولى والأغانى .

ويروى الصولى لموت أبى تمام روايتين : إحداهما تنتهى إلى من يدعى محمد بن موسى وتقول : إن الحسن بن وهب ، وكان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، عُنِى بأبى تمام ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها سنة ومات فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، ودفن بالموصل .

والثانية تنتهى إلى مخلد بن بكار الموصلى، وهو عدو من أعداء أبى تمام، الذى يهجوه كما مضى فى حديثى عنه قبلا . وقد هجاه أيضا لما مات بالموصل . ويقول إنه مات فى المحرم سنة آثنتين وثلاثين ومائة .

وثالثة وهى تؤيد الأولى تماما عن تمّام بن أبى تمام : أن أباه مات سنة ٢٣١ . وإذ قد آتفقت رواية تمّام مع رواية محمد بن موسى ، فأولى بنا أن نقدمها . فلو صحّ أن أبا تمام قد ظل سنة، أو سنة وبعض سنة، على ولاية بريد الموصل، فإن ذلك يجعل أوّل ولايته عليها فى منتصف سنة ٢٣٠ إن كان وليه سنةً، وفى أواخر سنة ٢٢٩ إن كان وليه أكثر من سنة .

فإذا وجدنا آبن الأثير يقول فى حوادث سنة ٢٢٩ : "وفى هذه السنة حبس الواثق الكتّاب، وألزمهم أموالا عظيمة، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان آبن وهب، كاتب إيتاخ، أربعمائة ألف دينار، ومن الحسن بن وهب، أربعة عشر ألف دينار ..."

آضطررنا إلى ترجيح أن الحسن بن وهب لم يكن فى يده بعد سنة ٢٢٩ من السلطان مايستطيع به أن يوظف أبا تمام ، فى عمل من أعمال الدولة . وأنه إن كان فعل ذلك ، فلا بدّ أن يكون قبل حبسه . وذلك ما يرجّح رواية ابن خَلّكان فى أن أبا تمام بقى على بريد الموصل أكثر من سنة .

فإذا صح أن أبا تمام كان على بريد الموصل منذ سنة ٢٢٩ حتى موته ، فإن وجوده بهذا العمل يرغمه على البقاء طول هذه المدّة دون تنقل ليمدح هذا أو ذاك ، لأن عمل صاحب البريد فى تلك الأيام كان معقدا ، وهو أقرب ما يكون إلى عمل مراقب على الوالى من قِبَل الخليفة . فتركه عملَهُ زمنا طويلا أو قصيرا، معناه آنقطاع الصلة بين عاصمة الدولة وقطره الذى هو فيه، إلا إذا أناب عنه غيره ، وهذا عسر لما كان يحيط هذا العمل من أسرار ، قد تكون سياسة الدولة فى حاجة إلى عدم كشفها . فقد كان الوالى أحيانا يخلع الخليفة، أو يسقط آسمه من الخطبة ، كما فعل طاهر آبن الحسين فى أيام المأمون، فيكتب صاحب البريد بذلك إلى الخليفة . وكما حدث أيضا فى ردّ خالد بن يزيد بن مَزْيَد عن إرمينية سنة ٢٢٣، إذ كتب صاحب بريدها إلى المعتصم يخبره عن سوء استقبال أهلها له ، وخوفهم منه . فلم يكن عمل صاحب البريد العمل السهل الساذج الأمين ، الذى يستطيع صاحبه أن ينام عنه ملء جفونه .

ومع ذلك فإنا نجد تلك القصة التى ذكرتها قبلا نقلا عن كتاب سرح العيون عن رحيل أبى تمام إلى الشام فى ثروة وغنى ، وكيف ضحكت منه المرأة ، وكيف عاد إلى الموصل بعد ذلك فبقى بها

حتى مات . هـذه وما سأذكره بعد من تنقل أبي تمام لمدح بعض ممدوحيه يجعل القول بولايته بريد الموصل محوطا بشيء من الشك ويدفع الى تلقيه بشيء من الحذر .

كما أننا نجد أبا تمام عند خالد بن يزيد بن مَزْيد ، فى إرمينية ، بعد أن ردّه الواثق إليها سنة ٢٣٠، يمدحه بقصيدة هى مثل من أمثلة نضج أبى تمام الشعرى فى أواخر أيامه، وهى :

ما لِكثيبِ الحِمَى إلى عَقَدِه ما بال جَرْعائِهِ الى جَرَدِه

يجد الإنسان فيها تلك الأبيات التى لا يستطيع إزاءها إلا أن يحنى الرأس إجلالا :

يا فرحةَ الثغرِ بالخليفةِ مِن يزيدِهِ المرتضَى ومِن أسدِه

* * *

ممتلِىء الصدرِ والجوانح مِن رحمةِ مملوئِهِن مِن حسدِه
يأخذ مِن راحةِ لِشغلٍ ويستبقى لِيَبْسِ الزمانِ مِن نَأَدِه
فهو لو آستطاع عند أسعدِه لحز عضوا مِن يومه لغدِه
إذ منهمُ مَنْ يعدُّ ساعتَهُ الطا ـقَ عِيارًا لهُ عَلَى أَبَدِه
أَلْوَى، كثيرُ الأسى على سؤددِ الـ ـعيش قليلُ الأسى على رَغَدِه
قريحةُ العقلِ مِن معاقلِه والصبرُ فى النائباتِ مِن عُدَدِه

وهو يشير فيها إلى شفاعته له عند آبن أبى دؤاد :

تالله أنسى دِفاعَهُ الزّور مِن عَوراءِ ذى نَيرب ومِن فَنَدِه

فهى قصيدة يذكر فيها أبو تمام ردّ خالد الى الثغر فى قوله : " يا فرحة الثغر ... ... " البيت . وقد قالها بعد خصومة آبن أبى دؤاد، ولم يردّ خالد الى الثغر إلا سنة ٢٣٠ كما يذكر اليعقوبى .

أما ما يثبت أنه كان فى إرمينية . فى تلك الأيام، فخبر حكاه الصولى : أن رجلا رآه فى مجلس خالد آبن يزيد بإرمينية ، فوجده حسن الفكاهة أعجبه جدا . فقال له خالد أما سمعت شعره فينا ؟

ما لِكثيبِ الحِمى إلى عقدِه ما بال جرعائِهِ إلى جردِه[1]

و يغلب أن يكون أبو تمام قصد هذه المرة أيضا إلى أذر بيجان ليمدح صاحبه القديم، الذى لم يتخل عنه يوما، وهو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى فيقول فيه قصيدته :

(١) أخبار أبى تمام (ورقة ٧٣) .

حتَّامَ دمعُكَ مسفوحٌ على الدِّمَنِ ... بانُوا، وشوقُكَ لم يُظْعنْ ولم يَبِنِ
ما زال قلبُكَ يَقْنَى الحُزن مجتهِدا ... حتى لقد أعْدَمَ الثَّكلَى من الحَزَنِ

فهو فيها يذكر الرحلة إليه :

إليك حاربتُ بُومَ الليلِ مُنصرِفا ... بالداعريَّةِ حَسْرى فَخْتَةَ البدنِ
قد سهَّلَ الحَزْنَ منها ما تَسَنَّمُهُ ... بالوخد من عَلِمٍ حَزْنٍ ومن شَزَنِ
تَسرِى بركبٍ تُوَشِّى ثوبَ ليلِهِمِ ... بالنورِ منهم وجوهٌ نَضْرةُ السَّنَنِ

ثم يقول فيها مشيرا الى الخليفة :

إنّ الخليفةَ هارونَ الذى وَصَلَت ... به الخلافةُ حبلَ الدينِ والسُّنَنِ
ألفاكَ أسمعَ من نالتـه دعوتُهُ ... قِدْمًا، وكنتَ إليه مصغىَ الأُذُنِ

* * *

وفى هذه السنة يمرض خالد بن يزيد بن مزيد، فى إرمينية[1]، ثم يموت، فيقول أبو تمام فى رثائه،

نِعاءِ إلى كل حىّ نعاءِ ... فتى العربِ اختطَّ رَبْعَ الفَناءِ

ومنها يصفه فى مرضه وكأنما شهده :

يقول النِّطاسِىُّ إذْ غُيِّبتْ ... عنِ الداءِ حيلتُهُ والدواءُ
نُبُوُّ المقيلِ به والمبيتِ ... أقْعَصَهُ، واختلاف الهواءِ

ومنها يخاطب ابنه محمدا، وكان الواثق ولاه إرمينية بعد أبيه، كما فى اليعقوبى :

أَبَا جعفرٍ لِيُعزِّكَ الزمانُ ... عَزاءً ويكْسُكَ ثوبَ البقاءِ
فما مُزْنَكَ المرتجَى بالجَهام ... ولا ريحُنا منك بالجَرْبياء
ولا رَجَعَت فيك تلك الظنونُ ... حَيارَى ولا انسدَّ شِعْبُ الرجاء
وقد نُكِسَ الثغرُ فابعثْ له ... صدورَ القنا فى ابتغاء الشفاء
فقد مات جَدُّكَ جَدُّ الملوك ... ونجمُ أبيك حديثُ الضياء
ولَمْ تُرْضَ قبضتُهُ للحسام ... ولا حَمْلُ عاتقِهِ للِّواء
فما زال يَقْرعُ تلك العُلَى ... مع النجم مرتديا بالعَماء
ويصعدُ حتى لظَنَّ الجَهُو ... لُ أنّ له منزلا فى السماء

(١) اليعقوبى : ج ٢ ص ٥٨٨

ثم يتحدّث عن سياسته الحرب حديث الخبير المجرّب :

وقد جاءنا أن تلك الحروبَ إذا حُذِيتْ فالتوتْ بالحذاءِ
وعاودها جربٌ لم يَزَلْ يُعاوَد إشعافُها بالهناء
متحت بسَجْل لها كالسجال ودَلْوٍ إذا أفرغت كالدِّلاء
ومثلُ قُوَى حَبْل تلك الذرا عِ كانت لزازًا لتلك الرِّشاء
فلا تُخْزِ أيامَهُ الصالحاتِ وما قد بَنَى من جليل البناء
وقد علم الله أن لن تُحِبَّ شيئا كحبك حسن الثناء

وفيها شيء من روح الأبوّة والعطف، خليق بأبى تمام فى سنيه الأخيرة. وكأن ذلك الهدوء الذى يشيع فيها، أشعة الشمس الغاربة صفراء باهتة، ولكنها عميقة المعنى، يتركز فى كل شعاع منها معنى النهار، من صبحه الى منتهاه .

رثى أبو تمام خالدا بغير هذه، ثم آنحدر الى الشام على الأغلب، فأخذ أهله ليقيم فى الموصل فى هدوء كان يأمله منذ زمان طويل . نزل الموصل هاربا من ذكريات أيامه الأولى فى الشام، متعبا قد أثر فى نفسه طول هذا الصراع مع الدنيا، ينبغى أن يستقبل الحياة من جديد بوجه جديد، يختلف عن عبوسها الذى لازمه منذ ولد . ولكن هؤلاء العظماء النفوس، لم تُقْسَم لهم الراحة فى الدنيا نصيبا، فسلّط عليه قَدَرُه شاعرا ناشئا، يريد أن يشتهر على حساب آسم أبى تمام الضخم، فأخذ يهجوه و يضحك منه، والشيخ لا يجيبه آحتقارا وترفعا، كما كان يقول للناس، وهربا من جلبة الهجاء، وضجيج الحياة كما أشعر أنا . هذا الشاعر هو مخلد بن بكار الموصلى .

١٧ — موت الشاعر

وفى جمادى الأولى سنة ٢٣١ أسلم هذا الرجل روحه، فبكاه أناس كثيرون . ولكنا لم نشهد فى بكائهم إياه دمعة تقرب من دموعه على من بكاهم غزارة وحرارة . مات كما يموت العظماء جميعا لا تذرف الناس عليهم الدمعة المنبعثة من قلب حزين مكلوم، ولكن الدمعة التى تعبر عن حس بخسارة شيء عظيم، كان يملأ عليهم حياتهم . تلك الدمعة الذاهلة لآنهيار الطود الشامخ، لا الدمعة الآلمة الصادرة عن قلب جريح . لم يرث أحد منهم أبا تمام، ولكنهم رثوا شعر أبى تمام؛ لأن شعر أبى تمام كان فى نفوسهم أخلد من شخصه . فضؤل الانسان الفانى إلى جانب العقل الخالد .

رثاه آبن الزيات، وقد يكون بيتاه أكثر ما قيل فيه جزعا عليه :

نبأٌ أتى من أعظم الأنباء ... لما ألمَّ مقلقلُ الأحشاء
قالوا: حبيبٌ قد ثوى فأجبتُهم ... ناشدتكم لا تجعلوه الطائى

وقيل بل هما لأبى الزبرقان : عبد الله بن الزبرقان الكاتب ، مولى بنى أمية . ورثاه الحسن آبن وهب بقوله :

فُجِعَ القريضُ بخاتم الشعراءِ ... وغدير روضتها : حبيب الطائى
ماتا معا فتجاورا فى حُفْرة ... وكذاك كانا قبلُ فى الأحياء

وقيل : بل هذان البيتان لديك الجن رثاه بهما . ورثاه الحسن بن وهب أيضا بقوله من قصيدة له :

سَقَى بالموصل القبرَ الغريبا ... سحائبُ ينتحبن له نحيبا
إذا أطللْنَه أطللْنَ فيه ... شَعِيبَ المُزن يتبعها شعيبا
ولطَّمْنَ البروقُ به خدودا ... وشقَّقن الرعودُ به جُيُوبا
فإنَّ تراب ذاك القبرِ يَحْوِى ... حبيبًا كان يُدعَى لِى حبيبا

و بيتاه الأولان يرثى فيهما الشعر، وأبياته الأخيرة يطلب فيها تقليد مذهب أبى تمام فى استعاراته واستعماله لغة طيء فى « لطَّمن البروقُ » و « شققن الرعود » و يورِّى فى حبيب وحبيب . ورثاه غير هؤلاء وشعرهم كهذا .

ودفن بالموصل . يقول البحترى «وبنى عليه أبو نهشل بن حُمَيد الطوسى قبة . يقول آبن خلكان، إنه رآها بالموصل خارج باب الميدان، على حافة الخندق؛ والعامة تقول هذا قبر تمّام الشاعر .

وقد قال شاعر متأخر من قصيدة له :

سقى الله دَوْح الغُوطَتيْن ولا آرتوتْ ... من الموصل الجَدباءِ إلَّا قبورُها

فلما سئل : لم حَرم الموصل السقيا، وخصَّ قبورها بها؟ قال لأجل أبى تمام .